أجاثا كريستي

سرّ فتاة المَطار

دار النجمة للنشر والتوزيع

سرّ فتاة المَطار

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

سرّ فتاة المَطار

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:

دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

-١-

قالت مضيفة الطائرة: أرجو أن تشُدّوا أحزمتكم.

فتباطأ ركّاب الطائرة في تلبية طلب المضيفة؛ فقد كان يسود شعورٌ بأن الطائرة لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى مطار جنيف، فكرّرت المضيفة طلبها قائلة: شُدّوا أحزمتكم أرجوكم.

ثم جاء صوت قائد الطائرة في مكبّر الصوت موضّحاً، باللغات الألمانية والفرنسية والإنكليزية، أنهم قادمون على فترة من الأحوال الجويّة السيّئة، فتثاءب السير ستافورد ناي واعتدل في مقعده بعدما كان مستغرقاً في نوم عميق. لقد كان يحلم في نومه بأنه يصيد السمك من أحد الأنهار الإنكليزية حين أيقظه صوت قائد الطائرة.

وكان ستافورد ناي يناهز الخامسة والأربعين من عمره، متوسّط الطول أملس البشرة حليق الذقن، يحرص في ثيابه وتصرّفاته على أن يلفت إليه الأنظار. وكانت أحب ثيابه إليه في أسفاره عباءة كتلك التي يرتديها قُطّاع الطرُق سبق أن ابتاعها في كورسيكا، وكان لونها أزرق قاتماً وبطانتها قرمزيّة، كما كان يتدلى منها غطاء للرأس يمكن استخدامه واقياً من التيارات الهوائية.

وكان السير ستافورد ناي مخيّباً للآمال التي عُقدت عليه في السلك الدبلوماسيّ لأنه لم يحقّق ما كان متوقعاً في شبابه؛ إذ كانت تعتريه نوبة مرح شيطانية ودعابة خبيثة حين يجدّ الجِدّ، ولكنه كان شخصيّة معروفة في الحياة العامة، وإن لم يبلغ قمّة المجد والشهرة، وكان رأي الناس في ستافورد ناي أنه لن يُقدّر له أن يكون الرجل الآمن المحنّك على الرغم من توقّد ذكائه، لا سيما في تلك الأيام المعقّدة في العلاقات الخارجية والمتشابكة في الاتجاهات السياسية، الأمر الذي أدّى إلى استبعاده من مناصب السفراء، وإن كانوا يعهدون إليه من حين إلى آخر ببعض المهام التي لم تكُن من الأهمية بمكان.

كان الرجل عائداً بعد الفراغ من تقصّي الحقائق في الملايو، وكان يرى أن تلك المهمّة تفتقر إلى التشويق لأن زملاءه كانوا قد بيّتوا النيّة من قبلُ عمّا سينتهون إليه من آراء مهما يكُن من أمر ما يشاهدون أو يستمعون. وكان بودّه لو بعث الحياة في أعمال اللجنة أو أثار في أذهان الأعضاء ما ينحرف بهم عمّا التزموا به.

وكان قد التقى بها من قبل في بعثة لحلّ مشكلة في إحدى عواصم دول البلقان، وهناك لم يتورّع السير ستافورد عن التقدّم بإصرار ببعض الآراء المشوّقة. وقد ألمحت بعض الصحف إلى ما كان من علاقة بين وجود السير ستافورد ناي في تلك العاصمة البلقانية وما أُثير من مشكلات في البلقان، كما تحدّثت عن مهمّته السرية البالغة الدقّة.

وقد بعث أحد الأصدقاء بنسخة من تلك الصحيفة إلى السير ستافورد ناي للاطّلاع عليها، ولكنه لم يُفاجَأ بما ورد بالصحيفة،

بل انفرجت شفتاه عن ابتسامة الرضا والسرور وطلب منه أن يستنتج ممّا نُشر مدى بُعده عن الواقع وما تردّى فيه الصحفيون من خطأ؛ فقد كان وجوده في صوفيا غراد راجعاً إلى اهتمام إحدى صديقاته القدامى، لوسي كليغهورن، اهتماماً ملحاً ببعض الزهور البريّة النادرة ورغبتها الشديدة في اقتناء بعضها!

❊ ❊ ❊

عاد صوت المضيفة يتردّد في مكبّر الصوت بالطائرة مخبراً المسافرين بأنه بسبب كثافة الضباب في جنيف فقد تقرّر التحوّل بمسار الطائرة إلى فرانكفورت حيث ستُستأنف الرحلة بعدئذ إلى لندن.

كان الجوّ في استراحة المسافرين بمطار فرانكفورت دافئاً ممّا حدا بالسير ستافورد ناي إلى التخلّي عن عباءته، ثم جلس يحتسي كوباً من القهوة ويستمع بأذن غير واعية لمختلف الإذاعات عن مواعيد قيام الطائرات إلى شتى عواصم العالم، كما راح ينظر بعينيه إلى ما حوله من أثاث وناس، ثم استقرّت عيناه على وجه السيدة التي قعدت إلى جانبه على الأريكة؛ فقد بدا له أنه وجه مألوف لديه وإن كان لم يذكر أين ومتى التقى بصاحبته. إنها لا تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها، لها أنف جميل وشعر أسود غزير. أما هي فقد راحت تتفرّس في وجهه وقد نحّت المجلة التي كانت تقرأ فيها جانباً، وفجأة بادرته قائلة بصوت موسيقيّ ولكنة أجنبية خفيفة: هل يمكن أن نتجاذب أطراف الحديث؟

فراح يتأمّلها قبل أن يجيب، ولما اطمأنّ إلى أنها ليست من ذلك الطراز من النساء أجابها قائلاً: ولِمَ لا؟ لدينا متّسع من

الوقت فيما يبدو.

- الضباب في كل مكان، في جنيف ولندن. لا أدري ماذا أفعل!

- هوّني عليك، إنهم يقدّرون مسؤوليّاتهم. إلى أين أنت ذاهبة؟

- كنت ذاهبة إلى جنيف.

- سيحملونك إليها فوراً، فإذا حدث هذا كان كل شيء على ما يرام.

- يوجد مَن سيلتقي بي هناك، وبهذا يمكن أن أصبح في أمان.

- أمان؟!

ثم ابتسم قبل أن يسمعها تقول له: إن الأمان كلمة من أربعة أحرف، ولكنها تعني الكثير في أيامنا هذه، وتعني الكثير بالنسبة لي بالذات، فإذا لم يُتَح لي السفر إلى جنيف واضطُررت إلى مغادرة هذه الطائرة هنا أو اضطُررت إلى أن أذهب بها إلى لندن دون الإعداد لذلك فسيكون القتل مصيري. أعلمُ أنك لا تصدّق هذا.

- الحقيقة أنني لا أصدّق.

- ولكنها الحقيقة المُرّة. يوجد مئات من الناس يُقتلون كل يوم.

- ومَن يا ترى الذي يتمنّى لك هذا المصير؟

- وهل يغيّر هذا من الواقع شيئاً؟

- لا.

- لكَ أن تصدّقني إذا ما أردت ذلك. أنا بحاجة ماسّة إلى مَن يساعدني على السفر إلى لندن في أمان.

- ولماذا وقع عليّ اختيارك لأكون ذلك الرجل؟

- لأنني أعتقد أنك تعرف شيئاً عن الموت، وربما قُدّر لك أن تشهد لحظة من لحظاته.

فتأمّلها بنظرة فاحصة ثم قال: وهل يوجد سبب آخر؟

فمدّت يدها لتلمس معطفه الفضفاض قائلة: أجل، هذا.

ولأول مرّة أثارت اهتمامه فسألها قائلاً: والآن ماذا تعنين بقولك هذا؟

- إنه رداء غير عادي مميّز الطابع لا يرتديه الكثيرون.

- صحيح، فهذه إحدى هواياتي.

- وهي هواية يمكن أن أنتفع بها.

- ماذا تعنين؟

- سأسألك شيئاً قد ترفضه، ولكنني لا أظن أنك ستفعل لأنني أعتقد أنك رجل تحبّ المخاطرة مثلي تماماً.

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة وقال: أنا مصغٍ إليك.

- أنا بحاجة إلى هذه العباءة وجواز سفرك، كما أنني بحاجة إلى تذكرة سفرك إلى لندن. سيعلنون في مدى عشرين دقيقة تقريباً عن قيام الطائرة المتّجهة إلى لندن، وسوف أركب تلك الطائرة

بجواز سفرك مرتدية عباءتك، وبهذا أصل إلى لندن في أمان.

- أتعنين أنك ستنتحلين شخصيّتي؟

فتحت حقيبة يدها لتُخرج مرآة صغيرة وقالت: تأمّل وجهك ثم تأمّل وجهي لتتبيّن مدى ما بيننا من تشابه.

فنظر إلى وجهها فرأى أنه وجه مألوف لديه؛ فهي تشبه شقيقته باميلا التي تُوفّيت منذ عشرين عاماً. لقد كان الشبه بينهما كبيراً، فقال: أنا مدرك ما تعنين، ولكن هذا لن يخدع أحداً.

- بكل تأكيد، ولكنك لم تفطِن بعدُ لِما أعتزم عمله. ستسافر واضعاً القلنسوة فوق رأسك وحول وجهك، وكل ما عليّ أن أفعله هو أن أقصّ شعري وأغلّفه بإحدى الصحف ثم أُلقي به في سلّة المهملات، وبعد ذلك أرتدي معطفك وأتسلّم تذكرتك وجواز سفرك وأستقلّ الطائرة منتحلةً شخصيتك، وإذا لم يكُن هناك مَن هو على معرفة وثيقة بك بتلك الطائرة فإن كل شيء سيكون على ما يُرام. وسوف أحرص على أن تُخفي القلنسوةُ معظمَ قسمات وجهي فيما عدا أنفي وعينَي وفمي، وهي الأعضاء التي يتركّز فيها الشبه بيننا، ثم أغادر الطائرة في أمان بعد وصولها لأنه لن يعرف أحد أنني كنتُ مسافرة بها، ثم أمضي في طريقي قُدماً متّخذة من زحام لندن ستاراً.

فابتسم السير ستافورد وقال متسائلاً: وما هو المطلوب منّي؟

- عليك أن تنهض من مكانك هذا وتذهب إلى قاعة المبيعات كي تشتري مجلّة أو صحيفة أو هديّة، وسوف تترك عباءتك فوق مقعدك، وعندما تعود سيكون أمامك هذا القدح

وقد وُضعت فيه مادة مخدّرة.

- وماذا بعدُ؟

- سيعرف الناس أنك كنت ضحية المخدّر وأنه قد سُلبت حافظة نقودك بجميع ما فيها من أوراق إثر تناوله. سيكون من السهل عليك أن تثبت شخصيتك طبعاً.

- هل تعرفين مَن أنا؟

- لا، ليس بعد؛ فأنا لم أطّلع على جواز سفرك ولا أعرف مَن أنت.

- ومع ذلك تقولين إن إثبات شخصيّتي لن يتعذّر!

- في مقدوري أن أحكُم على الناس من مظهرهم، ولذلك تجدني واثقة من أنك شخصية لها قدرُها.

- وما الذي يدعوني إلى الإقدام على هذا كله؟

- لتنقذ حياة امرأة في خطر.

- ألا ترين أن القصّة بعيدة عن التصديق؟

- بلى، فليس من اليسير تصديقها. أتُراك اقتنعت بها؟

فتأمّلها عن كثب قائلاً: أراك بمثابة الجاسوسة الحسناء في قضية مثيرة!

- ربما، ولكنني لست بالحسناء.

- ولست بالجاسوسة، أليس كذلك؟

- ربما انطبق عليّ هذا الوصف؛ فلديّ بعض المعلومات

التي أُريد الاحتفاظ بها، معلومات لها قيمتها في نظر بلادك.

- ألا ترين أن فيما قلت مبالغة لا تتّفق مع المنطق السليم؟

- بلى، أرى ذلك، ولكننا في عصر لا يُستبعَد فيه شيء.

فعاد يتأمّلها. إنها تشبه باميلا شقيقته إلى حدٍ بعيد، ولكن ما تعرضه عليه فيه ما يثير السخرية أولاً، ثم ما ينزلق بالمرء إلى ما هو أكثر من المخاطرة ثانياً، وهذا بالذات هو ما يثير فضوله لأن فيه الكثير مما يتّفق مع ميوله ونزواته. وأخيراً بادرها قائلاً: أريد أن أعرف ما يعود عليّ من قبول عرضك.

فنظرت إليه ملياً ثم قالت: الإثارة. إن مجرّد التغيير والخروج عن المألوف ترياق للسأم. ومهما يكُن من أمر فالكلمة الأخيرة لك.

- وماذا عن جواز سفرك؟ هل يتعيّن عليّ أن أنتحل شخصية امرأة وأبتاع شعراً مستعاراً؟

- لا؛ فأنت لن تحلّ محلّي. لن تكون بك حاجة إلى شيء من هذا بعد أن تُعلن عن حقيقة شخصيّتك وتقول إنك قد خُدّرت وسُرقت. عليك أن تحزم أمرك فليس ثمّة مُتسع من الوقت وعليّ أن أُعدّ نفسي لما هو آتٍ.

- لكِ ما تريدين؛ فأنا لا أستطيع أن أرفض كل ما هو غير عادي ممّا يُعرَض عليّ من أمور.

- كنت أرجو أن يكون هذا رأيك.

أخرج ستافورد ناي جواز السفر من جيبه فوضعه في جيب

معطفه الفضفاض، ثم نهض عن مقعده وهو يتثاءب وينظر حوله، ثم ألقى نظرة إلى ساعته واتّجه إلى جناح المبيعات حيث ابتاع بعض هدايا الأطفال وكتاباً مغلّفاً، ثم قفل راجعاً إلى حيث كان قاعداً.

ولم يجِد الفتاة ولا العباءة ولكنه وجد قدح القهوة حيث تركه، فالتقطه ليفرغ محتوياته في جوفه، وكان مذاقه لا يختلف في شيء عن مذاقه قبل أن يوضَع فيه المخدر. ثم سار عبر القاعة إلى ركن بعيد منها وهو في عجب من كل ما حدث ويحدث، فاتّخذ مجلسه بجوار عائلة كان أفرادها يضجّون بالضحك وهم يتجاذبون أطراف الحديث، فأسند رأسه إلى ظهر مقعده وهو يتثاءب. وبعد أن شرع في تصفّح كتابه شعر برغبة شديدة في النوم، وعن بُعد سمع صوت المذيع وهو يعلن عن قرب إقلاع طائرته المسافرة إلى لندن، الطائرة رقم ٣٠٩.

من بين صفوف المسافرين الذين نهضوا مسرعين عقب سماعهم المذياع شوهد رجل متوسّط الطول يرتدي عباءة زرقاء داكنة تكشف ثنياتها عن بطانتها الحمراء وقد غطّى رأسه بقلنسوة أخفت معظم وجهه. وبعد أن أبرز الرجل تذكرة سفره اجتاز الباب رقم ٩، ثم سُمع صوت المذياع يعلن قائلاً: هلاّ تفضّلت الآنسة دافن تيودوفانوس المسافرة إلى جنيف بالحضور إلى مكتب الطيران. المسافرون إلى جنيف سيصلون إليها عن طريق أثينا والطائرة تتأهّب للإقلاع.

ثم توالت النداءات على مختلف المسافرين إلى اليابان ومصر وجنوب إفريقيا. وكان من بين المسافرين إلى جنوب إفريقيا السيد سدني كوك الذي دُعِي إلى التوجّه إلى مكتب

الطيران حيث توجد رسالة له.

وفي ركن من المكان كانت توجد فتاة صغيرة تتأمّل ذلك الرجل الذي يغطّ في نومه مسنِداً رأسه إلى ظهر مقعده وممسكاً بدُمية لحيوان الباندا، ثم مدّت الفتاة الصغيرة يدها صوب الدمية فنهرتها أمّها قائلة: جوان، إياكِ أن تفعلي هذا! إن السيد مستسلم للنوم.

- تُرى ما هي وجهته؟

- ربما كانت أستراليا كما هي وجهتنا.

- وهل له ابنة صغيرة في مثل عمري؟

- ربما.

ثم تأمّلت الفتاة الدمية بحسرة. وكان السير ستافورد ناي لا يزال يغطّ في نومه مستمتعاً بأحلامه المختلفة، ولم يكُن قد سمع من إعلانات المذياع غير أوّلها الخاص بالآنسة دافن تيودوفانوس ثم استسلم لنوم عميق.

* * *

-٢-

بعد أن أعدّ السير ستافورد ناي لنفسه قدحاً من القهوة راح يتصفّح بريد الصباح فلم يجِد به شيئاً ذا أهمية، فألقى بالرسائل مع غيرها فوق المنضدة ليتفرغ إلى قهوته وإفطاره، ثم عاد ليلتقط الرسائل التي فضّها عند وصوله في ساعة متأخّرة من الليلة الماضية. وكان يبتسم وهو يعيد قراءة إحداها قائلاً: الحادية عشرة والنصف؟ إنها ساعة مناسبة. يحسن بي أن أُعيد التفكير في بعض الأمور مع الاستعداد لشيتويند.

وبعد قليل غادر بيته إلى الشارع فسار عبر منتزه غرين بارك في طريقه إلى هوايتهول. وقد كان منشرح الصدر يرى من الحياة جانبها المشرق، ثم بدأ يستعرض كل شيء عن شيتويند. إن شيتويند أحمق غبيّ ولكنه واجهة حسنة وشخصية تبدو هامة، له ذهن مدقّق مرتاب. وقد كان واثقاً من أنه سوف يتمتّع بهذا اللقاء.

وصل إلى هوايتهول متأخّراً بضع دقائق عن الموعد المحدّد فألفى شيتويند جالساً إلى مكتبه وأمامه مختلف الأوراق، وقد استقبله شيتويند مبتسماً مرحّباً وهو يقول: مرحباً ناي، عَوْد سعيد. كيف وجدت بلاد الملايو؟

- حارّة.

– هذا هو المفروض فيها. أعتقد أنك كنت تعني المناخ وليس السياسة، أليس كذلك؟

– بلى؛ فمن الطبيعي أن أعني ذلك.

ثم اتخذ له مقعداً فسأله شيتويند قائلاً: هل توصّلت إلى بعض النتائج؟

– نتائج لا تكاد تُذكر، وقد بعثت بتقريري. كيف حال لازنباي؟

فقال له شيتويند: لا زال مصدر مضايقة كالعهد به، هو لن يغيّر من شأنه.

– هذا أكثر ما يُرجى منه. أما من أنباء أخرى؟

– لا، لا جديد.

– لم أفهم من خطابك سبب هذه الزيارة.

– لقد جئت كي استعرض بعض الأمور معك، فمن الجائز أن تكون قد جئتنا ببعض التوجيهات الخاصّة ممّا يمكن أن نتأهّب للإجابة عليه في مجلس العموم، أو أي شيء من هذا القبيل. لقد عُدت جوّاً، أليس كذلك؟ يُخيّل إليّ أنه قد صادفتك بعض المتاعب.

فاكتسى وجه ستافورد ناي بالقناع الذي أعدّه لهذا الموقف، قناع الجدّ والضيق معاً، ثم قال: إذن قد سمعت بما حدث؟

– أجل، وهذا أمر طبيعي. يا له من موضوع عجيب!

– لقد أولته صحف الصباح أهميّة بالغة.

- لعلك كنت تفضّل أن لا يحدث هذا، أليس كذلك؟

- إن حدوثه لشخص في مثل عمري ومركزي يُظهرني بمظهر الغِر الأبله.

- ماذا حدث على وجه التحديد؟ فأنا أظنّ أن الصحيفة قد بالغت في عرض الحقائق.

- هذا دأب الصحف دائماً. أنت تعرف مدى ما يكتنف هذه الرحلات من ملل. لقد قيل بأن الضباب كان كثيفاً في جنيف ممّا استوجب تغيير مسار الطائرة إلى فرانكفورت حيث مكثنا في قاعة الانتظار ساعتين كانتا مبعثاً للسأم والضجر.

- وماذا حدث في أثناء تلك الفترة؟

- لقد جلستُ أتحايل على ملل الانتظار بتناول قدح من القهوة وقراءة ما كنت أحمل من صحف ومجلاّت، ثم رأيت أن أذهب كي أشتري قصّة بوليسية ودُمية لإحدى بنات إخوتي، وبعد ذلك عُدت لأتناول ما تبقّى من قدح القهوة وأشرع في قراءة قصّتي الجديدة، فكان أن استغرقت في النوم، وأعتقد أن هذا أمر طبيعي. وكنت مستسلماً للنعاس بحيث إنني لم أسمع شيئاً عن قُرب قيام طائرتي مع أنني كنت أسمع دائماً كل نداء في أسفاري مهما كنت نائماً. ثم صحوت من نومي، أو قُل عُدت إلى صوابي، لأجد مَن يقوم على رعايتي طبياً! كان واضحاً أن شخصاً ما قد دسّ لي مخدّراً في شرابي في أثناء غيابي عن مقعدي لشراء الكتاب والدمية.

- هذا أمر يدعو إلى الدهشة، أليس كذلك؟

- بلى، وهو ما لم يحدث لي من قبل. لقد اكتشفت سرقة حافظة نقودي بما فيها من أوراق، وكان من بينها جواز سفري، ومع ذلك فلم يتعذّر عليّ إثبات حقيقة شخصيّتي بفضل ما كان معي من رسائل وأوراق أخرى في بعض جيوبي الداخلية.

- إنه حادث مؤسف وخصوصاً لرجل في مثل مركزك.

كان صوت شيتويند مشوباً بما ينبئ عن عدم رضاه عمّا حدث، ثم تابع قائلاً: مهما يكُن من أمرٍ فأنت لا لوم عليك؛ فمن الجائز أن يقع هذا لغيرك.

- ومع ذلك فقد لُقّنت درساً قاسياً.

- ألم يدُر بخلدك أن ثمّة مَن كان يهدف إلى الاستيلاء على جواز سفرك بالذات؟

- لا أعتقد هذا. لماذا؟ وفيمَ هذا العناء؟

- هل التقيت بشخص لك به سابق معرفة في فرانكفورت؟

- لا.

- ألم تتبادل الحديث مع أحد؟

- بلى، وكان مجرّد حديث عابر مع البعض حول موضوعات تافهة.

- أنا أميل إلى الاعتقاد بأنه يوجد شيء ما وراء تلك الأحداث.

- لا أرى ما يمكن أن يختفي وراء ما وقع لي، وعلينا أن لا نبالغ في تصوّر أشياء أبعد ما تكون عن الواقع. دعنا من هذا

الحديث وقُل لي: كيف حال ليلاند العجوز؟ لقد سمعت عنه الكثير هناك.

وتجاذب الرجلان الحديث طوال عشر دقائق، ثم نهض السير ستافورد بعدها منصرفاً وغادر الغرفة منشرح الصدر يُحيّي هذا وذاك ممّن التقى بهم في الدهليز. وبعد انصرافه اتصل شيتويند بسكرتيرته هاتفياً وطلب إليها أن تدعو الكولونيل مونرو كي يحضر إلى مكتبه.

أقبل الكولونيل مونرو وبصحبته رجل في منتصف العمر ثم قال: لا أدري إذا ما كان لك سابق معرفة بهورشام أم لا. إنه من رجال الأمن.

- أظن أننا التقينا من قبل.

ثم تابع الكولونيل مونرو قائلاً: لقد كان ناي مجتمعاً بك، أليس كذلك؟ ماذا عن تلك القصّة التي جرت أحداثها في فرانكفورت؟ أعني هل يوجد شيء جدير بالاهتمام؟

- لا أظن ذلك، وهو آسف لما حدث.

فأومأ الرجل المدعوّ هورشام برأسه قائلاً: هو آسف لأن ما حدث يُظهره بمظهر الغافل، أليس كذلك؟

- بلى، وإن كان قد حاول أن يهوّن الأمر.

فانبرى هورشام قائلاً: ولكنه ليس بالغِر الأحمق كما نعرف عنه، أليس كذلك؟

- إن مثل هذه الأحداث ليست مُستبعَدة بصفة عامة.

فقال الكولونيل مونرو: أجل، أُدرك هذا، ولكنني كنت

أرى في ناي دائماً أنه لا يُرجى منه خير وأنه قد يجانبه الصواب في الكثير من آرائه، ومع ذلك هو ليس بالرجل الغافل. ألم يدُر بخلدك أنه يوجد ما يثير الشكّ فيما حدث؟

وكانت الجملة الأخيرة موجّهة إلى هورشام الذي قال: من جانبه؟ لا أظن ذلك.

- هل تولّيت فحص الموضوع بأسره يا هورشام؟

- لم يكُن لدينا متّسع من الوقع للتركيز على جميع الاحتمالات، ولكننا نعرف أن جواز سفره قد استُعمل.

- استعمل؟ وكيف كان ذلك؟

- في مطار هيثرو، هنا في لندن.

- هل تعني أن أحداً ما قد انتحل شخصية السير ستافورد ناي؟

- إلى حدٍ ما، ومن الجدير بالذكر أنه لم يكُن قد جاءنا إخطار عن فقْد الجواز لأن السير ستافورد لم يكُن قد استفاق بعد ليتبيّن ما حدث.

- أتعني أن السارق قد استغلّ جواز السفر داخل إنكلترا؟

- نعم، هذا هو المفروض، وهذا ما يمكن أن يُعَدّ تفسيراً لما حدث في استراحة مطار فرانكفورت؛ فقد دُسّ المخدّر في شراب السير ستافورد لسرقة الجواز.

فقال شيتويند: من المفروض أن يتفرّس المختصّون في صُور الجواز الفوتوغرافية ووجه حامله!

فقال هورشام: لا بدّ من أنه يوجد شبه كبير بين المختلِس للجواز وصاحبه الأصليّ، فضلاً عن أنه لم يكُن يوجد ما يثير الشكّ في احتمال وقوع شيء من هذا القبيل، وغني عن البيان أنه ما لم يحدث شيء يدعو الضابط المختصّ إلى إمعان النظر في الجواز فإنه يكتفي بإلقاء نظرة عابرة في زحمة المسافرين الوافدين. ولا زال البحث مستمراً لكشف الستار عن سرّ استعمال هذا الجواز.

- وما هو رأيك الخاص؟

- لم أنتهِ بعد إلى رأي معيّن؛ فأنا لا أحب القفز إلى النتائج دون رويّة.

وبعد أن غادر هورشام الغرفة قال الكولونيل مونرو: كلهم سواء، لا يكشفون عن آرائهم قبل الأوان. هذا هو شأن رجال الشرطة.

فعقّب شيتويند قائلاً: هذا أمر طبيعي؛ فهم يخشون الوقوع في الخطأ. إن هورشام شخص كُفء وموضع ثقة جميع رؤسائه.

* * *

-٣-

عاد السير ستافورد إلى مسكنه، واستقبلته امرأة بدينة على باب المطبخ قائلة: حمداً لله على سلامة العودة. يا لتلك الطائرات المقيتة! إن السفر بها غير مضمون العواقب.

- أجل يا سيدة ووريت، لقد تأخّرنا أكثر من ساعتين.

- أنا لا أحب السفر بها.

وبعد أن ذكرت له ما أعدّته له من أنواع الطعام للغداء وأطرى ذوقها فيما وُفّقت إليه من ألوان عادت السيدة ووريت إلى مواصلة عملها قريرة العين، ثم سمعها تقول له: لا بدّ من أنك توافقني على ما فعلته من تسليم ثيابك إلى الشخص الذي جاء لتسلّمها مع أنك لم تحِطني علماً بذلك، أليس كذلك؟

فوقف السير ستافورد أمام باب الغرفة وسألها قائلاً: أية ثياب؟!

- سُترتان كما قال الرجل. لقد قال إنه موفَد من شركة تويسي وبوني لتنظيف الملابس، وكنا قد اختلفنا مع شركة هوايت سوان من قبلُ على ما أذكر.

- سُترتان! ما أوصافهما؟

- إحداهما السّترة التي كنت ترتديها عند عودتك من

الخارج. لم يكُن لديّ أدنى شكّ في أنها بحاجة إلى التنظيف، ثم رأيت أن تكون الثانية هي السُّترة الزرقاء التي لم يُعهد بها إلى التنظيف منذ فترة طويلة.

وكانت السيدة ووريت تتحدّث حديث الواثق من أنها أحسنت صنعاً، غير أنها سمعته يعقّب قائلاً: إذن فقد فاز ذلك الشخص المجهول بالسُّترتين.

ثم بدأ الشكّ يراود السيدة ووريت التي قالت: أتراني أخطأت؟

- إن السُّترة الزرقاء لا تعنيني في كثير أو قليل، أما الأخرى التي كنت أرتديها عند عودتي من الخارج...

- لا أرى مانعاً من تنظيفها! ثم إنها لا تناسب هذا الفصل من السنة، كما أنه قال إنك اتصلت بهم هاتفياً وحدّدت لهم أوصاف السُّترتين.

- وهل دخل غرفة نومي لأخذهما؟

- نعم يا سيدي؛ فقد رأيت أن هذا أفضل.

- عظيم، رائع!

ثم خطا إلى غرفة نومه فأجال النظر إلى ما حوله، فوجد أن السيدة ووريت لم تنسَ شيئاً ولم تدّخر وُسعاً في العناية بنظافتها وحُسن إعدادها، ثم اتجه إلى الخزانة ليتفقّد ما بداخلها. وقد تبيّن أن الرجل قد حرص على أن لا يترك ما ينمّ عن عبثه بالأدراج بحثاً عمّا يريد وأنه قد حمل معه السُّترتين اللتين أتى في طلبهما.

وأخذ ستافورد ناي يستعرض في ذهنه جميع الاحتمالات، ثم استقرّت عيناه على الدمية الموضوعة فوق المنضدة المجاورة للفراش والتي أثارت رؤيتها خواطر شتى في ذهنه، فنهض إلى الهاتف ليدير قرصه قائلاً: العمّة ماتيلدا؟ ستافورد يتحدّث إليك.

- إذن فقد عدت يا ولدي العزيز؟ أنا مسرورة كثيراً بعودتك. لقد قرأت بالصحف عن الكوليرا في ماليزيا، أتمنّى أن أراك قريباً، ولا تعتذر بكثرة مشاغلك.

- ما رأيكِ في الأسبوع القادم؟

- لا، الغد أفضل.

- آسف؛ فلديّ من الأعمال ما لا يتيح لي زيارتك قبل الأسبوع القادم. كيف حال سيبيل؟

- إنها فتاة شريرة ولكنها مسلّية.

- لقد اشتريت لها دُمية أتمنّى أن تحوز إعجابها.

واستمع إلى العمّة ماتيلدا وهي تذكّره بمواعيد القطارات وتسأله أن يرسل إليها بضعة أنواع من الجُبن وغيره. وبعد انتهاء المكالمة مباشرة رنّ الهاتف، فرفع السير ستافورد السمّاعة ليسمع المتحدّث يقول: مرحباً، ستافورد؟ إيريك بيو يتحدّث إليك. لقد علمت بعودتك من ماليزيا. ما رأيك في تناول العشاء معي الليلة؟

- كم يسعدني هذا!

- حسناً، سنتقابل في نادي ليمبتز في تمام الثامنة والربع.

وبعد الفراغ من هذه المكالمة أقبلت السيدة ووريت قائلة: يوجد زائر بالطابق الأرضي.

- مَن عساه يكون؟

- يُدعى هورشام يا سيدي.

- هورشام؟

دُهش ستافورد من تلك الزيارة المباغتة، ثم هبط الدرَج إلى قاعة الاستقبال الكبيرة حيث وجد هورشام الذي بادره قائلاً: أتمنّى أن لا أكون قد أزعجتك.

- لا عليك، تفضّل بالجلوس. هل من خدمة أستطيع أن أُؤدّيها؟

فبدأ هورشام الحديث قائلاً: السير غوردون شيتويند شخص لطيف المعشر، وقد كنت مجتمعاً به بصحبة الكولونيل مونرو إثر انصرافك من مكتبه مباشرة، وقد وُفّقنا في طمأنتهم؛ فهم قلقون لأجلك.

- لأجلي؟

- هل لي أن أستفسر عن خطوتك التالية؟

- بكل سرور، أنا مسافر للإقامة مع عمّتي السيدة ماتيلدا كليكهيتون، وسأذكر لك العنوان إذا أردت.

- أعرفه، وهي فكرة صائبة.

- وهل هذا ما يراه الكولونيل مونرو والسير شيتويند؟

- أنت خير مَن يعرف يا سيدي، هم في حيرة بشأنك:

أيثقون بك أم لا يثقون!

- يثقون بي؟! ماذا تعني؟

كان السير ستافورد ناي محتداً وهو يستوضح من السيد هورشام ما يعنيه في حين راح هذا يبتسم بهدوء وهو يقول: سيدي، المعروف عنك أنك لا تأخذ الأمور مأخذ الجد.

- فهمت، لقد خُيّل إليّ أنك تعني شيئاً آخر.

- لا يا سيدي، هذا هو رأيهم فيك، فأنت محب للدعابة من حين لآخر.

- لا أظن أنه في قدرة المرء أن يكون جاداً على الدوام.

- ولكن هذا قد بلغ حدّ المخاطرة.

- ماذا تعني؟

- سأصارحك بكل شيء. قد يقع ما ليس في الحسبان أحياناً فتنحرف الأمور إلى ما لم يُقدّر لها يا سيدي، وأحياناً قد تمتدّ يد القدر، أو قُل يد إنسان، كما حدث...

فقاطعه ستافورد قائلاً: لعلك تُلمّح إلى ذلك الضباب في جنيف، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ فقد كان لذلك الضباب أثره في تغيير خُطط البعض، وكان أن وجد إنسان ما نفسَه في مأزق حرِج.

- أخبرني بكل شيء؛ فأنا أريد أن أُلم بكل ما تعرف.

- لقد تخلّف أحد المسافرين حينما غادرتَ طائرتك مطار

فرانكفورت بالأمس، وكنت تغطّ في نوم عميق بعد أن أتيت على شرابك واتخذت لك مجلساً في ناحية من استراحة المطار في حين أنهم كانوا يواصلون النداء باسم تلك المسافرة المتخلّفة قبل إقلاع الطائرة.

- تُرى ماذا كان من أمرها؟

- نحن نودّ أن نعرف الإجابة عن هذا السؤال، وجدير بالذكر أن جواز سفرك قد قُدّم إلى موظّفي مطار هيثرو بالأمس على الرغم من تخلّفك!

- وأين هو الآن؟ هل افترضتم أنه أُعيد إليّ؟

- لا، فهذا افتراض يتجاوز كل الحدود. لقد كان لهذا المخدّر أثره المرتقَب دون أن يكون له أي أثر صحّي سيئ عليك.

- لقد أصابني بصداع شديد.

- هذا ما لم يكُن ممكناً تجنّبه في مثل تلك الظروف.

- ما دمتَ ملماً بكل شيء، فقُل لي ماذا كان سيحدث لو أنني رفضت العرض الذي قُدّم إليّ.

- كان الرفض يعني النهاية لماري آن.

- ماري آن؟! مَن تكون؟

- الآنسة دافن تيودوفانوس.

- هذا هو الاسم الذي يُخيّل إليّ أنني سمعته في مذياع المطار.

- أجل، فهذا هو اسمها الذي كانت تتسمّى به في سفرها، أما نحن فندعوها باسم ماري آن.

- وما هي حقيقة أمرها؟ هل لي أن أعرف؟

- إنها بارعة في عملها.

- وما عملها؟ هل هي معنا أم مع غيرنا؟ هذا بشرط أن تحدّد مفهوم كلمة غيرنا لديك.

- أُدرك ما تعني، وأظن أنه ليس من اليسير تحديد ذلك.

فأطرق السير ستافورد ناي قليلاً ثم قال: ماري آن؟ هذا اسم لا يتمشّى مع اسمها الحقيقي دافن تيودوفانوس.

- إن أمها يونانية ووالدها إنكليزي، أما جدّها فكان من رعايا النمسا.

- تُرى ماذا كان يمكن أن تتعرّض له لو لم أوافق على إعارتها ردائي؟

- كان يمكن أن تُقتَل.

- حقاً؟!

- نعم، إن ما يقع في مطار هيثرو يقضّ مضاجعنا، ولو كانت تلك الطائرة قد واصلت طريقها إلى جنيف لجرت الأمور على خير ما يُرام وكانت صاحبتنا قد غادرتها تحت رعاية كاملة، أمَا وقد تغيّر مسار الطائرة فلم يكُن من المستطاع اتّخاذ الإجراءات اللازمة لحمايتها.

- لقد أثرت قلقي عليها، أرجو أن تكون بخير.

- هذا ما نرجوه، فنحن لم نسمع ما يفيد العكس.

فقال السير ستافورد ناي معقّباً: قد يكون فيما سأرويه لك ما يفيدكم، لقد قام بزيارتي شخص زعم أنه من شركة تنظيف وأخذ سُترتين، وذلك في أثناء وجودي صباحاً بهوايتهول، وكانت إحداهما تلك السُّترة التي كنت أرتديها بالأمس، ويوجد أكثر من احتمال يفسّر به هذا الفعل.

- لعله كان يبحث عن شيء معيّن.

- هذا ما أعتقده، وإن كان قد بالغ في حرصه على أن لا يُشعرني بشيء غير طبيعي؛ فقد أعاد تنظيم أدراجي بدقّة، ولكنه لم يُعِد الأشياء إلى مكانها الذي كنت قد تركتها به. ترى عمّ كان يبحث؟

- لا أستطيع أن أجزم بشيء، ولا شك في أنه توجد أمور ما تجري هنا وهناك، وقد تكون صادرة عن دوافع سياسية أو دوافع مالية. إن لك معرفة بالسيد روبنسون، أليس كذلك؟ أم لعل له معرفة بك فيما أظن؟

فأطرق السير ستافورد قبل أن يجيب قائلاً: روبنسون؟ هذا اسم إنكليزي جميل. ثم نظر إلى هورشام واستطرد قائلاً: إنه رجل بدين مكتنز الوجه أصفره له نفوذه في كثير من الصفقات المالية بصفة عامة.

فقال هورشام: لقد أخذ بأيدينا ليخرج بنا من مأزق حرِج أكثر من مرّة في بلادنا هذه، ولا يعرفه مَن هو من طراز السيد شيتويند لأنهم يعتقدون أنه يكلّفهم كثيراً.

فسأله ستافورد قائلاً: حبذا لو زدتني إيضاحاً فقد اختلط الأمر عليّ.

ثم نظر ستافورد إلى هورشام بفضول، فأومأ هذا برأسه نفياً وقال: نحن لا نعرف شيئاً على وجه التحديد.

- تُرى ما الذي يمكن أن أحتفظ به في مسكني ومن شأنه أن يثير الفضول إلى العثور عليه؟

- أصارحك القول بأنه ليست لديّ أية فكرة عن ذلك.

- هذا أمر مؤسف! إن كل ما كان بيني وبين ماري آن تلك هو أنها سألتني أن أُعينها على إنقاذ حياتها، فأخذت منّي ولم تعطِني شيئاً أحتفظ به لها.

- إذا لم تنشر صحف المساء شيئاً عنها فستكون قد أنقذت حياتها فعلاً.

- وبهذا تختتم القصة فصولها. يا للأسف! لقد استبدّ بي الفضول، وكم كان بودّي أن أعرف المزيد.

* * *

– ٤ –

ابتدر إيريك بيو صديقه قائلاً: هل لي أن أحدّثك بشيء؟

فتأمّله السير ستافورد ناي الذي كانت له معرفة سابقة بإيريك بيو امتدّت أعواماً. ولم تكُن العلاقة وثيقة بين الرجلين لأن السير ستافورد كان يرى في إيريك شخصية مملّة، ولكن الرجل كان من الأصدقاء المخلصين له، ومن ذلك الطراز الذي يحب أن يدسّ أنفه في شؤون الناس.

استمع إليه ستافورد وهو يقول متسائلاً: لقد عُدت بعد انتهاء مؤتمر ماليزيا، أليس كذلك؟

فأجابه ستافورد ناي قائلاً: بلى.

– هل وعيت من الأمور ما كان له أهمية خاصة؟

– كل شيء كان عادياً، ومضى المؤتمر قُدماً كما كان مقدّراً له. إن تلك المؤتمرات الزاخرة بالخُطب الملتزمة بموقف معيّن المعروفة النتائج تُضجرني وتبعث في نفسي الملل.

ثم تحدّث إيريك بيو عمّا يخطّط له الصينيون ويعتزمون القيام به، فعقّب السير ستافورد على ذلك بقوله: لست أعتقد في أنهم يدبّرون أمراً، إنها مجرّد شائعات. إن ماو العجوز مهتمّ بمقاومة مرضه ومَن يتآمرون عليه. ومهما يكُن من أمر فما هي

العلاقة بين هذا وماليزيا؟

فقال إيريك: أنا لم أكُن أركّز على ماليزيا بالذّات.

- ماذا بك؟ وفيمَ هذا التجهّم؟

- أنا أتساءل عمّا إذا كنت قد قمت بشيء يلطّخ سُمعتك.

فحملق السير ستافورد ناي إلى وجه محدّثه بدهشة ثم قال: أنا؟!

- أنت خير مَن يعرف نفسه؛ فأنت تحب أن تعبث بمشاعر الناس لتسخر منهم.

- لقد أقلعت عن ذلك أخيراً. تُرى ماذا سمعت عنّي؟

- سمعت ببعض المتاعب التي حدثت في الطائرة التي كان من المفروض أن تستقلّها في أثناء عودتك.

- وممّن سمعت بهذا؟

فأجاب إيريك قائلاً: من كارتيزون.

- يا له من عجوز مخرّف يتخيّل من الأمور ما لم يحدث على الإطلاق!

- أعرف عنه هذا، ولكنه في هذه المرّة كان ينقل عن وينترتون ما سمعه فيما أظن.

- وماذا سمع؟

- لقد سمع أنه توجد حلقة من الجاسوسية يُخشى منها على بعض الناس.

- وماذا يرون فيّ؟ هل أنا جاسوس آخر؟

- أنت تعرف أنك لا تتحرّى الدقّة فيما يصدر عنك، جرياً وراء حبك للدعابة.

- يا صديقي، إن رجال السياسة والدبلوماسيين ومَن هم على شاكلتهم قوم نزّاعون إلى الانطواء على أنفسهم، وهذا هو السرّ في ولعي بإثارة جمودهم من حين لآخر.

- أنا مشفق عليك من هذا الولع؛ فهم يريدون توجيه بعض الأسئلة إليك عمّا حدث بتلك الطائرة العائدة إلى لندن، ويبدو أنهم يعتقدون أنك لم تَصدُقهم القول.

- إذن فهذا هو رأيهم، رائع! سأُضاعف من شكوكهم.

- إياك أن تفعل!

- هذه فرصتي.

- استمع إليّ، أرجو أن لا تُسيء إلى مستقبلك بهذا الانقياد إلى ذلك الولع بالدعاية والهذر دون رويّة.

- لقد ضقت ذرعاً بكل هذه القيود الوظيفية.

- وهذا الاستهتار هو الذي أعاقك فلم تبلغ من المناصب الرفيعة ما بلغه رفاقك.

- هوّن عليك يا صديقي، فحب الدعابة ليس جرماً.

ولم يجِد إيريك بُداً من أن يلوذ بالصمت ويكفّ عن مجادلة صديقه، وهكذا صفا جوّ الأمسية واستمتع الرجلان بعشائهما، ثم عاد ستافورد إلى المنزل سيراً على الأقدام عبر

غرين بارك، وبينما كان يخطو عبر الطريق مرّت بجواره سيارة مسرعة كادت تدهمه لولا أنه أسرع بالقفز إلى الرصيف لينجو بحياته، وسرعان ما اختفت السيارة بعيداً وتركته يتساءل عن السرّ في محاولتها القضاء عليه! ولكن، لِمَ كل هذا الذي يتعرّض له؟ فها هو مسكنه يُعبَث به، ثم ها هي حياته تتعرّض للخطر. وبدأ يشعر بالخطر المحدق به.

وبعدما دخل إلى المنزل التقط بريد المساء فألقى نظرة إليه، ثم راح يتصفّح مجلّة لايف بوت المشترك فيها. وكان يطوي الصفحات وهو شارد الذهن، ثم توقّف فجأة بعد أن لفت نظره ذلك الشيء المودَع بين الصفحات، فتأمّله ليتبيّن أنه جواز سفره قد أُعيد إليه وأُلصق به طابع العودة إلى مطار هيثرو بلندن.

إذن فقد عادت إلى لندن بسلام ورأت أن تُعيد إليه الجواز بعد استعماله. تُرى أين هي الآن؟ كم يودّ لو تسنّى له أن يعرف! ثم تساءل في نفسه قائلاً: هل سيُقدّر لي أن ألتقي بها ثانية؟ مَن عساها تكون تلك المرأة؟

ورأى أنه أشبه بمشاهِد لمسرحية جلس في انتظار الفصل الثاني! ولكن فيمَ هذا الترقّب لرفع الستار عن الفصل الثاني؟ إنها ليست من الجمال إلى الحدّ الذي يجعله يتوق إلى لقائها إذا ما رُفع الستار عن الفصل الثاني من هذه القصّة، ومع ذلك فقد كان الغموض الذي يكتنفها هو الذي أثار في نفسه ذلك الفضول، ولكنه لا يحب أن يمضي أيامه في حيرة وتساؤل. ورأى أنه يجب أن يفعل شيئاً، فنهض كي يحرّر إعلاناً بالصيغة التالية: «مسافر إلى فرانكفورت، الثالث من نوفمبر، نرجو الاتصال برفيق السفر في لندن».

فإذا ما قُدّر لها أن تقع عيناها على هذا الإعلان فإنها ستُدرك مغزاه وفحواه، ومن هنا يمكنها أن تتّصل به لأنها تعرف اسمه وعنوانه من جواز سفره، وقد لا يمكنها الاتصال به على الرغم من ذلك لأنه من الجائز أن تكون قد رحلت عن لندن بعد أن أنجزت ما جاءت من أجله.

وفي الصباح التالي، وبينما هو في طريقه إلى منزله مجتازاً منتزه سانت جيمس حاول أن يستعيد صورة شقيقته باميلا. لقد انقضت فترة طويلة منذ وفاتها، إنه يذكر كل شيء عنها وإن كان لا يستطيع أن يتمثّل صورة وجهها بكل دقّة، فأثار ذلك حنقه، فتوقّف عن مواصلة سيره في حين كان على وشك عبور الطريق الخالي من الحركة اللهمّ إلا من سيارة قديمة من طراز ديمار كانت تتحرّك على مهل.

ثم عجِب من أمر نفسه وشرود ذهنه وهذا التوقّف عن السير دون سبب أو داع، وخطا ليعبر الطريق، فما كان من السيارة الديمار إلا أن اندفعت بسرعة فائقة في اتجاهه كحيوان مفترس يبغي الانقضاض عليه، وبفضل سرعة حركته كرياضي قديم تمكّن من القفز إلى الرصيف المقابل حيث وقف ينظر إليها من دهشة المفاجأة وهي تختفي عن ناظرَيه.

* * *

بينما كان الكولونيل بايكواي جالساً في غرفة مكتبه ببلويزبري تحيط به سُحب الدخان المتصاعد من لفافة التبغ الضخمة اتصل به سكرتيره هاتفياً ليعلن له أن الوزير السير جورج باكهام قد جاء لزيارته. وأقبل السير جورج باكهام على الكولونيل

بايكواي قائلاً: نحن لم نلتقِ منذ فترة طويلة فيما أعتقد.

- تفضل بالجلوس وإليك بلفافة تبغ.

- لا، ليست بي رغبة الآن. أعتقد أن هورشام كان في زيارتك، أليس كذلك؟

- بلى، وقد أخبرني بما لديه.

- لقد رأيت أن هذا أفضل، أي أن يأتي لزيارتك؛ فمثل هذه الأمور يجب أن تُعالَج في إطارٍ من الكتمان.

- هذا ما لن يكون.

- عفواً، ماذا تقصد؟

- أقصد أننا مهما توخّينا الحذر فإن كل شيء سوف يُعرف ويُذاع.

- تُرى ما هي المعلومات التي توصّلتم إليها عن هذا الموضوع؟

- كل شيء، أليس هذا هو عملنا؟

- يا له من حادث يدعو إلى الدهشة ويثير التساؤل! هل لك معرفة شخصية بالسير ستافورد ناي؟

بدأ الكولونيل بايكواي يضيق ذرعاً بهذا الحديث لأن له رأياً خاصاً في أسلوب تفكير زائره، فهو رجل حذِر يمعِن الفكر ويبالغ في التصوّر، وإن كان ليس بالرجل المتألّق الذكاء. ثم سمع الوزير يقول: أنا لا أنسى ما كان من أمر.

فابتسم الكولونيل وراح يعدّد أسماء بعض من خيّبوا الظن فيهم، فأردف السير جورج بأسىً قائلاً: وهكذا لم تصبح الثقة المطلَقة في الآخرين ممكنة. إليك ستافورد ناي مثلاً، إنه من أُسرة عريقة أباً عن جَدّ.

فعقّب الكولونيل بايكواي يقول وهو يكاد يكون مغمَض العينين: هكذا غالباً، ذرّية خاطئة في الجيل الثالث!

- كما أنني أرى فيه رجلاً أبعد ما يكون عن مواطِن الجِدّ نزّاعاً إلى الدعابة والهذر.

- أجل، إنه مغرم بالعبث بمشاعر الناس ومباغتتهم بما لا يتوقّعون لأنه يستمرئ متابعة ردّ الفعل في أنفسهم.

- وهل في هذا التفسير ردّ مقنِع؟

- ولِمَ لا؟ هي هواية مثل الهوايات الأخرى.

- أنا لا أستبعد ذلك، ولو كنت في مكانك لما تركت القلق يستبدّ بي.

* * *

نحّى السير ستافورد ناي قدح القهوة جانباً، ثم التقط صحيفته اليومية وأخذ يتصفّحها مولياً عمود الإعلانات الشخصية اهتماماً خاصاً كما فعل طوال الأيام السبعة الماضية، وأخيراً استقرّت عيناه على الكلمات التالية: «مسافر من فرانكفورت، الخميس الحادي عشر من نوفمبر، جسر هنغر فورد، الساعة السابعة وعشرون دقيقة».

أعاد السير ستافورد قراءة الإعلان قائلاً: الخميس الحادي عشر من نوفمبر؟ إنه اليوم! ثم اضطجع في مقعده وراح يرتشف مزيداً من القهوة؛ فقد أحيا الإعلان في نفسه مَوات الآمال، ثم نهض إلى المطبخ حيث وجد السيدة ووريت منكبّة على عملها، فنظرت إليه بدهشة وهي تقول: سيدي، هل من خدمة أؤدّيها لك؟

- نعم، إذا ذُكر أمامك اسم جسر هنغر فورد فإلى أين تذهبين؟

- سأتّجه رأساً إليه دون شكّ؛ فهو بالقرب من تشيرنغ كروس، هناك عبر نهر التيمس.

- عرفت أين يقع، شكراً يا سيدة ووريت.

* * *

كان مساء ممطراً عاصف الريح، وجدّ السير ستافورد ناي في السير وقد رفع ياقة معطفه الواقي من الأمطار. ولم تكُن تلك أول مرّة يمشي فيها عبر جسر هنغر فورد، وإن كان لم يخطر بباله من قبل أنه سيتّجه إليه في مثل تلك الظروف.

وكان الجسر مزدحماً بمسرعي الخطى إلى منازلهم حيث يلوذون بها من أمطار تلك الليلة وريحها، ثم دار بخلد السير ستافورد ناي أنه سيكون من العسير التعرّف على أحد في زحمة تلك الجماهير، ولأن الساعة السابعة وعشرين دقيقة ليست باللحظة المناسبة لتحديد موعد ما فوق ذلك الجسر المزدحم.

وواصل سيره قدماً حريصاً على الاحتفاظ بمسافة بينه وبين

مَن يتقدّمه ومَن يتعقّبه كي يتيح الفرصة لمن يريد التعرّف عليه. أتُراه قد وقع فريسة لدعابة الغير بعد أن كان هو صاحب السبق في هذا المضمار؟ وبينما كان هذا الخاطر يدور بخلده وقع بصره على امرأة ترتدي معطفاً واقياً من المطر تمشي على مهل في الاتجاه المضاد، وبعد أن اصطدمت به سقطت فوق ركبتيها فأعانها على النهوض قائلاً: هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم، شكراً.

ومضت في طريقها مسرعة بعد أن وضعت في يده شيئاً، وحرصت على أن تُطبق أصابعه عليه، ثم اختفت بين صفوف المارّة بعكس اتجاهه. ورأى السير ستافورد ناي أن يمضي في طريقه هو الآخر لأن هذا أفضل لهما. وراح يجِدّ في سيره إلى أن بلغ الجانب الآخر من النهر.

وبعد بضع دقائق كان يجلس في مقهى صغير كي يحتسي قدحاً من القهوة ويُتيح لنفسه فرصة لتأمّل ما في يده، فوجد أنه ظرف رقيق من البلاستيك بداخله ظرف آخر من الورق الأبيض. وحينما فضّ الظرف الثاني أصابته الدهشة؛ إذ وجد به تذكرة دعوة لحضور المهرجان الموسيقي الذي سيُقام بقاعة البلدية في مساء اليوم التالي.

* * *

- ٥ -

استقرّ ستافورد ناي في مقعده وراح ينصت إلى مقدّمة البرنامج الموسيقي، وعلى الرغم من أنه كان يستمتع بموسيقى فاغنر إلا أنه كان يفضّل من بينها أوبرا سيغفريد رينغولد ودافيرنغ. وكان يتلفّت حوله بين لحظة وأخرى بعد أن حرص على احتلال مقعده مبكّراً، وكانت القاعة كاملة العدد كما هي العادة.

وفي فترة الاستراحة نهض السير ستافورد ليلقي نظرة إلى ما حوله، وكان المقعد المجاور له خالياً لم يشغله أحد، بمعنى أن شاغله لم يحضُر، ثم غادر القاعة ليحتسي قدحاً من القهوة ويدخّن لفافة تبغ، ثم عاد أدراجه عند سماع جرس التنبيه، وما إن اقترب من مقعده حتى رأى أن المقعد المجاور له قد احتلّه صاحبه، فاستقرّ في مقعده ثم ألقى نظرة عابرة جانبية وتحقّق من أن الجالسة بقربه هي فتاة استراحة مطار فرانكفورت.

لم تلتفت إليه بل حرصت على أن تولي وجهها شطر المسرح، كما أنه لم يبدُ عليها ما ينمّ عن تعرّفها عليه، فأدرك من ذلك الخطّة التي يجب أن تُتبع في ذلك اللقاء. وبعد أن أُطفئت الأضواء استدارت إليه جارته قائلة: معذرة، هل تسمح لي بالاطّلاع على برنامج الحفل؟ يبدو أنني فقدت برنامجي حينما كنت في طريقي إلى مقعدي.

- بكل سرور.

ثم مدّ يده إليها بالبرنامج الذي تسلّمته منه وراحت تراجع بنوده، وقد بدأت الموسيقى بافتتاحية لوهنغرين. وبعد انتهاء العزف أعادت إليه البرنامج شاكرة، فتناول البرنامج ليتعرّف على اسم المقطوعة التالية، وحينئذ أبصر سطراً مدوّناً بقلم الرصاص في ذيل الصحيفة، ولم يحاول أن يقرأ ما هو مدوّن في تلك اللحظة بالذات حين خفتت الأضواء. فطوى البرنامج وأمسك به بين يديه، ثم تبادر إلى ذهنه أن ذلك هو برنامجها الذي ادّعت أنه فُقد منها لأنه لم يكُن لديها فرصة لتدوين شيء ببرنامجه. إن الملحوظة كانت مُعدّة له، الأمر الذي يدعوه إلى اتّخاذ الحيطة، فكل ما يحيط بتلك المرأة يُعدّ لغزاً من الألغاز.

ولم يستبعد أن يكون في القاعة مَن يراقب تحرّكاتها أو تحرّكاته، وحسبه الآن أنها استجابت لندائه بالصحف وأنه تأكّد من وجودها بلندن، وليس عليه سوى أن يصبر ويترقّب ويترك لها ما تشاء من خطوات ويصدع بما تأمُره به كما فعل بالمطار. إن في ذلك كله ما يجعل الحياة مشوّقة مثيرة وليست كتلك الحياة المملّة التي يقضيها في حضور المؤتمرات!

وبمجرّد انتهاء الفرقة الموسيقية من عزفها بدأت تحدّثه دون أن تلتفت إليه أو يبدو عليها أنها تتحدّث إليه. وكانت تتحدّث بصوت عادي أبعد ما يكون عن الخفوت، ثم انتهى البرنامج الموسيقي فدوّت القاعة بالتصفيق وبدأ الحضور في الانصراف، فتلكأ لعله يرى منها توجيهاً ما ولكن لم يبدُ منها شيء من هذا القبيل، وما كان منها إلا أن نهضت عن مقعدها وأسرعت الخطى مختفية بين صفوف المنصرفين.

ركب السير ستافورد سيارته عائداً إلى منزله، ثم تناول البرنامج إثر وصوله وأخذ يمعن النظر إليه لعله يتبيّن شيئاً مما كُتب به، ولكنه لم يجِد به الرسالة التي كان يمنّي نفسه بها؛ إذ لم يكُن مكتوباً بالبرنامج كلمات معيّنة يُفهم منها شيء، اللهمّ إلا بضع علامات موسيقية بالقلم الرصاص.

وبحركة يائسة أعاد البرنامج إلى المنضدة بجواره، وبدأ يضيق ذرعاً بذلك الغموض الذي يكتنفه من كل ناحية، ويخيبه الأمل كلما خُيل إليه أنه يقترب من إماطة اللثام عن سرّ تلك المرأة الغامضة، ثم عادت لمحات الأمل تتسلّل إلى ظلمة ذهنه حينما دار بخلده هذا التساؤل: لماذا استجابت لندائه بالصحف؟ وفيمَ كان ذلك اللقاء عند الجسر وفي الحفل؟ إن في ذلك كله ما يدلّ على أنها لن تدعه يتخبّط في ظلام الشكّ والحيرة.

وعاد فالتقط البرنامج ثم نهض إلى النافذة وأخذ ينظر منها، وبعد قليل ألقى نظرة إلى البرنامج وحاول أن يترنّم بالنوتة الموسيقية المدوّنة بالقلم الرصاص، فبدا له أن اللحن مألوف لديه، فأعاد الترنّم بصوت أعلى فازداد اقتناعاً بأن اللحن ليس جديداً عليه، ثم ابتعد عن النافذة وجلس مسترخياً في مقعده يقلّب الأمر على كل ناحية، فرأى أنه قد يكون من الخير له أن يغادر لندن ويسافر لزيارة العمّة ماتيلدا التي تقيم بشقّة فسيحة في جناح قصر قديم بالريف ورثته عن جدّه.

لقد كان يشعر بالحنين إلى ذلك البيت الذي كان يقضي فيه أيام العطلة المدرسية وهو صبيّ، حيث كان يطيب له أن يتأمّل صور أسلافه من كبار شخصيات الأسرة مستعيداً ما كان يسمعه عن أمجادهم وثرائهم. ترى لماذا عادت إليه تلك الذكرى؟

لعلها تلك الرغبة الكامنة في إلقاء نظرة إلى صورة شقيقته باميلا التي رُسمت لها منذ عشرين عاماً، هو يريد أن يطيل النظر إليها ويتأمّلها عن كثب ليتبيّن الشبه بينها وبين تلك الغريبة التي اقتحمت عليه حياته وعكّرت صفوها.

ثم مدّ يده ليمسك ببرنامج الحفل مرّة ثانية وهو غاضب حانق وراح يترنّم بمضمون النوتة الموسيقية المدوّنة بقلم الرصاص قائلاً: تم تم، تي تم...

ثم أدرك ماذا تعني وما هو كُنهها. إن تلك الرسالة لم تكُن تعني أحداً سواه؛ إذ لا يمكن أن يفهم أحد سواه شيئاً منها. إنه لحن «سيغفريد الشاب». لا بدّ وأن لهاتين الكلمتين معنى خاصاً، وليس عليه إلا التريّث لعله يهتدي إلى ما يمكن أن يكون «سيغفريد الشاب». تُرى ماذا تعني تلك الملحمة؟ لماذا وكيف ومتى وأين؟ إن من سخرية القدر أن يصبح ستافورد ناي فريسة لأحابيل غيره.

ثم اتصل هاتفياً بالعمّة ماتيلدا، فسمعها ترحّب به قائلة: سوف يسعدنا مجيئك، دونك قطار الرابعة والنصف، وسيكون هوراس في انتظارك. اتفقنا.

- ألا يزال يخدمكم؟

- بلى، بكل تأكيد.

لقد بدأ هوراس حياته في خدمتهم صبياً، ثم حوذياً، ثم سائقاً، ثم ها هو لم يزَل في خدمتهم وقد تجاوز الثمانين من عمره. وابتسم السير ستافورد راضياً هادئ النفس.

* * *

-٦-

قالت العمّة ماتيلدا وهي تتفحّصه بنظراتها: لقد ازددت وسامة بتلك السمرة التي اكتسبتها في الملايو. هل كنت في الملايو أم كان المؤتمر في سيام أم تايلاند؟ إنهم يغيّرون أسماء الدول في هذه الأيام بحيث أصبح من العسير التمييز بينها واستيعابها. مهما يكُن من أمر فإن المؤتمر لم يكُن في فيتنام، أليس كذلك؟ لقد أصبحت أضيق ذرعاً بسماع تلك الأسماء المتداخلة المشوّشة، فهذه فيتنام الشمالية وتلك فيتنام الجنوبية وهؤلاء الفييت كونغ وآخرون الفييت لاو، إلى آخِر تلك الأسماء التي لم نكُن نسمع بها من قبل. أرى أنه لو قُدّر لكل شعب أن يُترك على سجيّته لارتاح العالَم من هذا العناء.

- أنا معجَب بآرائك دائماً! كيف حالك يا عمتي العزيزة؟

ثم أودع السير ستافورد ناي وجنة عمّته المتغضنة الشاحبة المعطّرة قبلة التحية والاحترام، فقالت له السيدة ماتيلدا كليكهيتون: لقد تقدّم بي العمر يا بُني، أنت لم تعرف بعد ماذا يعني هذا. إن الأمراض تتوالى ويوجد ما تشكو منه دائماً. والآن صارحني بالسرّ وراء هذه الزيارة المفاجئة.

فوجئ السير ستافورد بتلك الصراحة غير المتوقّعة، فأُرْتج

عليه القول قبل أن يُجيب قائلاً: كيف؟ هل نسيت أنه من عادتي أن أقوم بزيارتك إثر عودتي من رحلاتي في الخارج؟

- هلاّ اقتربت بمقعدك قليلاً، إن حاسّة سمعي تزداد ضعفاً منذ آخِر مرّة زُرتني فيها. أنت على غير ما ألفت أن أراك، فلماذا؟

- لأنني عائد من بلاد حارّة.

- هذا هراء! لا تراوغني، أنا لا أعني هذه الناحية. أهو الحب أخيراً؟

- الحب؟!

- كنت أشعر بأنه سيأتي يوم يدهمك فيه الحب كسائر الرجال.

- هلاّ حدثتِني عمّا دعاك إلى هذا الظن؟

- ما طرأ عليك من تغيير. حدثني أنت عمّا يتناقله الناس عن نزعتك الجنونية التي تقف حجر عثرة في سبيل مستقبلك؟ إن السلك السياسي لا يحب من رجاله مثل هذه النزوات.

فابتسم السير ستافورد ولم يجِب بشيء، بل راح يجول بعينيه في الغرفة، فقالت له السيدة ماتيلدا: عمّ تبحث؟

- عن صورك.

- هل تريد منّي بيعها؟ إن كثيرين قد شرعوا في ذلك.

- لا، ليس هذا ما أريد، ولكنني مغرم بصورك شديد التعلق بها.

- إنها سجلّ له قيمته وأمجاده. تُرى أية صورة تريد؟ صورة باميلا؟

- نعم، لقد جالت صورتها في خاطري بالأمس.

- لقد ورثتما هذا الوجه عن إليكسا.

- ومَن إليكسا؟

- هي جدّتك الثانية وربما الثالثة، وهي مجريّة، وكانت بارونة أو كونتيسة أو شيئاً من هذا القبيل، وحدث أن أحبها جدّك الثالث حينما كان سفيراً في فيينا.

- وهل توجد لإليكسا صورة بين مجموعة صور الأسرة كغيرها؟

- نعم، يمكن أن تجد صورتها بالطابق الأول أعلى الدرَج يميناً.

- يجب أن أُلقي نظرة إليها قبل أن آوي إلى فراشي.

- ولماذا لا تفعل الآن ثم تعود وتحدثني عمّا شاهدت؟

فنهض مبتسماً وهو يغادر الغرفة إلى حيث ارتقى الدرَج ووقف يتأمّل الصورة، فوجد أن ذلك الوجه هو الذي وقع نظره عليه وانطبعت صورته في ذهنه، لا لِما بينه وبين باميلا من شبه وإنما لِما بينه وبين تلك الصورة من تماثل صارخ. إذن تلك هي صورة تلك الفتاة الجميلة الأنيقة التي أحضرها معه جدّه السفير إلى الوطن! ثم تساءل عمّا إذا كانت توجد قُربى بينه وبين فتاة المطار بوصفها إحدى حفيدات تلك السيدة العظيمة.

وبادرته السيدة ماتيلدا بسؤالها بعد أن عاد أدراجه إلى قاعة الجلوس قائلة: هل وجدت الصورة؟ إن لها وجهاً جذّاباً لا تملّ من النظر إليه.

- أجل، وجهها جميل صبوح.

- ولكنك لم يسبق لك السفر إلى المجر أو النمسا، أليس كذلك؟ ولا أظن أنك التقيت بمن تشبهها في ماليزيا. لقد كانت جدتك الكبرى من طراز فريد، كانت حسنة الخُلق مهذّبة، ولكنها كانت كالطائر البرّي نَفور جَسور.

- من أين توافرت لك كل هذه المعلومات عنها؟

- في الواقع أنا لم أكُن معاصرة لها لأنني وُلدت بعد وفاتها بعدّة أعوام، ولكنني كنت أحب أن أستمع لما يُروى عنها وعن إقدامها وحبها للمغامرة.

- وماذا كان موقف جدي الأكبر من كل هذا؟

- موقف مَن استبدّ به القلق حتى الموت. لقد كان مخلصاً لها، وكان عصرهما عصر التقاليد الصمّاء، ولكن مهما يكُن من أمر فهو خير من عصرنا هذا بانحلاله الخُلقي وخنافسه المدلّلين وفتياته اللاتي يذُبن حباً عند سماعهن الغيتار. إن ذلك الطراز من الشباب من الجنسين لست أدري كيف يصبحون رجالاً ونساء قادرين على مواجهة الحياة بمسؤوليّاتها وتبعاتها وأعبائها! لنعُد إلى الحديث عنك وعن المغامرة الجديدة.

- ما الذي يدعوك إلى مثل هذا الظن بالله عليك؟

- لأن هذا ما تنمّ عنه أساريرك، وإن كنت تنكر ذلك.

- قلتُ لك إنه لا يوجد ما أحدّثك به.

- لقد كنت أعرف عنك دائماً أنك كذّاب. حسناً، على رسلك، جئني بها يوماً، هذا كل ما أبغيه قبل أن يُجهِز عليّ الأطباء بالمضادات الحيوية. تُرى أين كان اللقاء بينكما؟ في ماليزيا على طاولة المؤتمر، أم هي ابنة السفير أو الوزير؟ أم تُراك التقيت بها في الطائرة في أثناء عودتك؟

لم يجِد السير ستافورد بُداً من أن يقول: بدأت تقتربين من الحقيقة.

- إذن هي إحدى المضيفات، أليس كذلك؟

- ليست مضيفة.

- إذن احفظ سرّك، وسأبلغ ما أريد ذات يوم؛ فهذا شأني معك دائماً. إن اليأس لا يعرف طريقه إلى قلبي.

ثم انتقل الحديث بهما إلى ما يجري في العالَم من قلاقل وفتن واستغلال بعض الجهات لعنصر الشباب والتغرير بهم. وأخيراً قالت العمّة بعد أن توقّفت قليلاً عن الكلام: التاريخ يعيد نفسه بطغاته وأحداثه وفكره وأساليبه وأبطاله ومُثله العليا، وأحلام البعض تتوالى وتتكرّر مع تغيير اللفظ والمبدأ، فهذا هو شأن نظرية «سيغفريد الشباب».

* * *

-٧-

نظرت إليه العمّة ماتيلدا بعينيها الحادتين اللتين تتألّقان ذكاءً ثم قالت: يُخيّل إليّ أنك لم تسمع بهذا المصطلَح من قبل، أليس كذلك؟

- وماذا يعني؟

فرفعت حاجبيها دهشة وهي تسأله قائلة: ألا تعرف؟

- أقسم بالله أنني أجهل معناه.

- ولكنك سمعت الاصطلاح من قبل، أليس كذلك؟

- بلى، سمعته من شخص ما.

- واحد من ذوي الشخصيات الهامة، أليس كذلك؟

- ربما، ولكن ماذا تعنين بذوي الشخصية الهامة؟

- لقد قُدّر لك أن تشترك في عدّة مؤتمرات ممثّلاً بلادك بين كبار القوم الموفَدين للبلاد الأخرى، ويمكنك أن تقدّر بتجاربك الخاصة مَن عساه أن يكون ذا الشخصية الهامة. أنا لا زلت على صلة ببعض الأصدقاء القدامى الذين يُحيطون علماً بما يجري هنا وهناك، وهم لا يزالون متوقّدي الذكاء صحيحي الحُكم على الأشياء بالرغم من تقدّمهم في السن، ولذلك تجدني ألتقط منهم

مختلف الأنباء بين الحين والآخر، ومن هذه الأنباء ذلك القنوط والخوف السائد بين ربوع العالم، فالعالَم قلِق وغير مستقرّ بعد أن تغيّرت فيه أوضاع كثيرة وطفَت على السطح انحرافات أكثر. لقد أصبحنا في وقت لا يمكنك أن تثق فيه بأحد.

- حسناً، وبماذا تشيرين عليّ؟

- أتسألني المشورة وأنت تعلم كم أصبح عمري؟

- نعم، أسألك هذا بصدق.

- نحن نريد أن نتوصّل إلى منقذ يهدينا إلى ما تعنيه هذه الكلمة المتداولة أخيراً، ألا وهي «سيغفريد الشاب»، ولا أدري إذا ما كانت ترمز إلى شخص أو جماعة! غير أنه لا بدّ من أن يكون المصطلَح رمزاً لشيء ما، كما أنه يوجد ما يجب أن نضعه في اعتبارنا من هذه المعاني أيضاً، ألا وهو الخطّ الموسيقي. لقد كدت أنسى أيام فاغنر. إن في موسيقى فاغنر ما يُسمّى بنداء نفير سيغفريد. لِمَ لا تقتني جهاز تسجيل؟

- جهاز تسجيل؟

- نعم، وتتعلّم كيف تؤدّي نداء نفير سيغفريد وتسجّله عليه، إن لك تذوّقاً موسيقياً وفي وسعك أن تقوم بذلك، وربما استطعت أن تستفيد منه في الوقت المناسب للتأثير في القوم المخطئين.

- إن لك آراء قيّمة دون شك يا عمتي.

- إن طول العمر يبلغ بك هذه المرتبة. صحيح أن التقدّم في العمر لا يُتيح لك أن تسير هنا وهناك ولكن كل ما في وسعك

أن تفعله هو أن تجلس في مقعدك وتُمعن التفكير. أرجو أن تذكر قولي هذا بعد أربعين سنة!

- لقد أثرت انتباهي بتنويه واحد.

- واحد فقط؟! واحد فقط من بين كل ما تحدثت به إليك؟ تُرى ما هو؟

- ما قلتِه من أنه قد يتسنّى لي التأثير في القوم المخطئين بجهاز تسجيلي. هل هذا ما كنت تعنينه فعلاً؟

- نعم، لأن القوم الذين على صواب لا يعنينا أمرهم في كثير أو قليل، أما القوم المخطئون فشيء آخر، يجب أن تنفذ إلى الأشياء وتتطرّق إليها مع هؤلاء، ويجب أن يبذل الإنسان أقصى ما في وسعه ولا يبخل بشيء في سبيل بلوغ الأرب.

- كم يسعدني أن أستمع إليك وإلى أحاديثك الشجيّة! سأغادر هذا القصر حاملاً معي ذخيرة من القول السديد الذي لا يُنسَى، وأعتقد أن لديك الكثير مما كان يجب أن تُفضي به إليّ ولكنك رأيت أن تحتفظي به في جعبتك.

- أنا أترقّب اللحظة المناسبة، ولتثق بأنني أُولي شؤونك اهتمامي، ولكن أحطني علماً بأحوالك بين الحين والآخر. أنت مدعوّ إلى العشاء بالسفارة الأمريكية في الأسبوع القادم، أليس كذلك؟

- من أين لك بهذه المعلومات؟ أنا مدعوّ فعلاً.

- وقد قبلت الدعوة.

- هذا بحكم وظيفتي. عجباً! أنتِ تعرفين الكثير.

- الفضل في ذلك لميللي.

- ميللي؟!

- ميللي جين كورتمان زوجة السفير الأمريكي، وهي شخصية جذّابة حسنة المظهر أنيقة.

- أتعنين ملدريد كورتمان؟

- نعم، وهي تفضّل أن تُدعَى ميللي جين بدلاً من ملدريد. لقد كنت أتحدّث إليها هاتفياً بشأن بعض حفلات البِرّ.

* * *

-٨-

أقبلت السيدة كورتمان على ستافورد ناي مرحّبة به. كانت ميللي جين كورتمان بين الخامسة والثلاثين والأربعين من عمرها، دقيقة الملامح زرقاء العينين، يتوّج رأسها شعر يتّسق مع لون عينيها وصفاء بشرتها، وكانت من الشخصيات المحبوبة في لندن، أما زوجها سام كورتمان فكان عملاقاً عريض المنكبين أقرب إلى البدانة، وكان فخوراً بزوجته.

حيّت السيدة كورتمان السير ستافورد ناي قائلة: لقد عدتَ من الملايو، أليس كذلك؟ أرجو أن تكون قد استمتعت برحلتك، وإن كان الطقس غير ملائم في مثل هذا الفصل من السنة. نحن مسرورون جداً بعودتك. أنت تعرف السيدة ألدبورو والسيد جون، وهرفون روكين، وفراو فون روكين، و السيد والسيدة ستاغنهام.

كان ستافورد ناي يعرفهم جميعاً، وكان يوجد سيد هولندي وزوجته لم يسبق له أن التقى بهما من قبل لأن الزوج كان حديث العهد بمنصبه في لندن، أما ستاغنهام فكان وزير الشؤون الاجتماعية، وهو شخصياً لا يتميّز بشيء.

ثم استطردت السيدة ميللي: وهذه هي الكونتيسة ريناتا زركوفسكي، أعتقد أنها قالت إنكما سبق أن التقيتما من قبل.

فقالت ريناتا: لعل هذا اللقاء كان منذ عام مضى حينما كنت في إنكلترا أخيراً.

ها هي مرّة ثانية المسافرة من فرانكفورت، الواثقة من نفسها الهادئة الأعصاب الأنيقة الهندام. كان شعرها معقوصاً إلى أعلى وقد زيّنت صدرها بحلية من الياقوت، ثم واصلت السيدة ميللي التعارف فقالت: السيد والسيدة جاسبارو، الكونت ريتنر، السيد والسيدة أربوتنوت.

كان عدد المدعوين قرابة الثلاثين، وكان مقعد ستافورد ناي بين السيد ستاغنهام والسيدة جاسبارو ساعة العشاء، أما ريناتا زركوفسكي فقد كان مقعدها في مواجهته تماماً. ذلك هو عشاء السفارات الذي دُعِي إليه غير مرّة، وكان لا يتغيّر نهجاً أو أسلوباً، إذ يجمع بين مختلف أعضاء السلك الدبلوماسي والوزراء ورجال الصناعة ونجوم المجتمع ممّن يحلو للمرء أن يلتقي بهم فيما عدا واحداً أو اثنين.

وعلى الرغم من أنه كان مستغرقاً في الحديث مع السيدة جاسبارو إلا أن ذهنه كان منصرفاً عنها إلى حيث تتّجه عيناه إلى ناحية أخرى بلمحات غير ملحوظة، وكان يتساءل بينه وبين نفسه عن سبب دعوته إلى ذلك الحفل. هل هي دعوة كسائر الدعوات أم كانت دعوته لحفظ التوازن العددي بين الرجال والنساء كما يحدث أحياناً؟ أم تُراها لسبب معيّن؟ أهي دعوة جاءت عفو الخاطر أم دعوة أُعدّ لها؟ هل الإجابة عن هذا كله عند السفير وزوجته أم عند زوجته فقط؟ هل يمكن أن لا يكون ذلك الحفل أكثر من اجتماع في أمسية عادية؟

ثم راح يجول بعينيه بين المدعوين الجالسين إلى المائدة

ليتبيّن منهم المدعوّ الذي يوحي وجوده بما يساعده على وضع النقط فوق الحروف. هل يمكن أن يكون أحد هؤلاء المدعوين من الشخصيات الهامة؟ ألا يُحتمل أن يكون أحدهم من رجال المخابرات الأمريكية أو غيرها؟ هذا ليس بالأمر المستبعَد في تلك الأيام؛ فما يجري في العالَم لم يعُد يجري على النهج المألوف، وكما أنه توجد أمور تجري على مسرح الأحداث علناً فإنه توجد أمور بالغة الأهمية تجري من وراء الستار.

ثم استقرّت عيناه بُرهة على الجالسة في مواجهته فانفرجت شفتاها عن ابتسامة رائعة، والتقت عيناهما، ولكن لم تحدّثه نظراتها وابتسامتها بشيء. تُرى ماذا جاء بها؟ إذن فهي سيدة مجتمع وموضع تقدير من الجميع، ولكنه يريد أن يعرف مَن هي وما هو وضعها بين أعضاء هذا المجتمع.

كانت أمارات الذكاء تبدو على وجه تلك السيدة التي بادرته بالحديث دون حرج في مطار فرانكفورت. هل كانت تلك المرأة بكل ما فيها من إقدام وجرأة هي الحقيقية أم أن تلك التي تجلس أمامه كسيدة مجتمع في حفل عشاء دبلوماسيّ هي الحقيقة؟ أي دور من الدورَينً تقوم بأدائه؟ هل لها أكثر من شخصيّتين؟ هذا ما يريد أن يعرفه ويميط عنه اللثام. هل كانت تلك الدعوة محض مصادفة؟

وبينما كان يدور بخلده هذا السؤال نهضت ميللي جين من مقعدها فحذت سائر السيدات حذوها. وفجأة دوّى في الجو صخب وصراخ وصياح في الخارج وضجيج لم يكُن متوقّعاً، ثم أعقب ذلك صوت تحطيم زجاج وطلقات نارية، فتعلقت السيدة جاسبارو بذراع ستافورد قائلة: رباه! ماذا يحدث ثانية؟

إنهم الطلَبة يقاومون رجال الشرطة ويقاتلونهم ويأبون إلا أن يتظاهروا في الطرقات ويُخِلّوا بالأمن والنظام. لدينا منهم الكثير في روما وميلانو ومثلهم كثير في كل مكان من أوروبا. ماذا يريد هؤلاء الشبّان الأغرار؟

ثم تطرّق الحديث بالرجال إلى السياسة، وكان ستافورد يبدو وكأنه يستمع إلى هذا وذاك وإن كان منصرفاً عنهم بذهنه إلى موضوع آخر. وأخيراً نهض الرجال ليلحقوا بالسيدات في قاعة الاستقبال، فاتخذ السير ستافورد ناي له مقعداً إلى جانب سيدة ذهبية الشعر له بها معرفة عادية، وكان يعلم عنها أنها ثرثارة في غير ما يُضجِر ويبعث في النفس الملل عن أحاديث السياسة والأحداث العالمية، كما أنها تعرف الكثير عن رفيقاتها وصديقاتها.

ولم يعمد ستافورد ناي إلى توجيه أسئلة إليها عمّا يهدف إلى سماعه منها، بل حوّل دفّة الحديث بلباقة ودون أن يشعرها بذلك إلى ما يبغي، فسمعها تتحدّث عن الكونتيسة ريناتا زركوفسكي قائلة: إنها لا تزال بهيّة الطلعة جميلة وضّاءة المحَيّا، لا تبقى في لندن كثيراً لأنها تقضي أغلب أيامها في نيويورك أو في تلك الجزيرة الرائعة في البحر الأبيض المتوسط، وشقيقتها متزوجة بملك الصابون السويدي الجنسية فيما أعتقد، لذا فهي فاحشة الثراء، كما أنها تقضي بعضاً من وقتها في تلك القلعة بالقرب من ميونيخ، وهي ذَوّاقة للموسيقى شغوفة بها. لقد قالت إنها قد التقت بك من قبل، أليس كذلك؟

فقال ستافورد: بلى، منذ سنة أو سنتين.

- أعتقد أن ذلك اللقاء قد تمّ حينما كانت في إنكلترا

من قبل. يقولون إنه كان لها دور في أزمة تشيكوسلوفاكيا أو في اضطرابات بولندا، لا أذكر على وجه التحديد.

ثم انخرطت في حديث طويل عن بعض الأحوال العالمية والشؤون الاقتصادية والقيود النقدية إلى أن قاربت السهرة على نهايتها، فرأى ستافورد أنه لم يحصل على الكثير من المعلومات عن زميلة السفر في فرانكفورت اللهمّ إلا بالنسبة لكثرة أسفارها ووضعها الاجتماعي والعائلي الذي يتيح لها الكثير من الاتصالات، وللحظة خاطفة دار بخلده أنها جاسوسة، وبدا له أن هذا الخاطر هو الأقرب احتمالاً وأنه هو التفسير الصحيح، إلا أنه لم يكُن يشعر في قرارة نفسه بأنه مقتنع به كل الاقتناع.

واقتربت السهرة من نهايتها، وأخيراً جاء دوره لتوليه السيدة ميللي بعض رعايتها. وكانت ميللي جين خير مَن يتقن تحيّة ضيوفه فقالت: كنت أتوق إلى فرصة لأتحدّث إليك، فأنا أريد أن أسمع الكثير عن الملايو. إن أسماء تلك الدول الآسيوية المستحدَثة تختلط عليّ. حدثني بما جرى هناك، تُرى هل كان هناك ما يلفت النظر ويثير الانتباه أم لم يكُن ثمّة جديد؟

وقد كان لتلك الزرقة الداكنة في عينيها تأثيرها العميق فيمن تتحدّث إليه، تماماً كتأثير عينَي القط الفارسي في أسيره. وكان بودّه لو تسنّى له أن يسبر غور ميللي جين وينفذ إلى أعماقها؛ فهي ليست بالمرأة العادية عقلية وتدبيراً وإرادة وإن نظراتها إليه توحي بأنها تريد منه شيئاً.

* * *

كان ميدان غرسفينور هادئاً تماماً وكانت أرصفته تحمل

بقايا الزجاج المحطّم وغير ذلك من آثار مظاهرة الطلَبة. وتعاقبت السيارات على باب السفارة لتنقل الضيوف المنصرفين، وكان رجال الشرطة منتشرين في أنحاء الميدان استعداداً لما عساه أن يحدث. وسمع السير ستافورد ناي صوتاً موسيقياً عميقاً يهمس في أذنه قائلاً: أنت لا تقيم بعيداً عن هنا، أليس كذلك؟ يمكنني أن أصطحبك معي في طريقي إلى حيث تقيم.

- لا، لا، إن المسافة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام.

فقالت له الكونتيسة زركوفسكي: أؤكّد لك أنه سيكون من بواعث سروري أن أصطحبك معي؛ فأنا أقيم في فندق سانت جيمس نارو.

فقال ستافورد: هذا كرم منك.

ثم ركب السير ستافورد السيارة الفاخرة مع السيدة ريناتا، وكانت هي التي أعلمت السائق بعنوان السير ستافورد ناي، ثم مضت السيارة في طريقها فقال لها: وهكذا تعرفين أين أقيم!

- ولِمَ لا؟

- حقاً، ولِمَ لا؟ أنت تعرفين الكثير، أليس كذلك؟ لقد كان جميلاً منك أن تُعيدي إليّ جوازي.

- لقد رأيت أنني بهذا قد أجنّبك بعض المضايقات والحيرة والقلق، وقد يكون من الأوفق أن تحرقه لأنه من المفروض أنهم زوّدوك بجواز سفر آخر.

- تماماً.

- وستجد معطفك في قاع دُرج خزانتك. لقد أُودع هناك الليلة، وقد أعدته إليك لأنه سيتعذّر عليك شراء غيره.

- ذلك المعطف سيعني الكثير لديّ بعد أن اقترن بتلك المغامرة. أرجو أن يكون قد أدّى الغرض المقصود.

- أجل، وعلى أتمّ وجه؛ فأنا لا زلت على قيد الحياة.

ولم يعقّب السير ستافورد بشيء؛ فقد كان يشعر في قرارة نفسه بأنها تريد منه أن يوجّه إليها بعض الأسئلة وأن يلحّ في الاستفسار منها عن حقيقة أمرها وعن المصير الذي نجت منه، إنها تريده أن يكشف عن فضوله، ولكنه عقد العزم على أن لا يكون ذلك الفضوليّ. ثم سمعها تطلق ضحكة رقيقة قبل أن تقول له: هل استمتعت بأمسيتك؟

- إن أمسيات ميللي جين جميلة دائماً.

- هل لك بها معرفة وثيقة؟

- كنت أعرفها في نيويورك قبل أن تتزوج. هل ترين في ميللي جين كورتمان أنها طموحة؟

- نعم، وهي الصفة الغالبة عليها.

- وهل ترين أن كونها زوجة السفير الأمريكي لدى بلاط سان جيمس لا يُرضي طموحها؟

- بكل تأكيد، إن ذلك مجرّد بداية.

ولم يعقِّب بشيء؛ فقد كان ينظر إلى الطريق، ثم همّ بأن يحدّثها بشيء ولكنه توقّف عن الكلام لأنه فهم نظرتها الخاطفة

إليه وهي ملتزمة جانب الصمت. وظلاّ على تلك الحال إلى أن بلغت بهما السيارة أحد جسور نهر التيمس فبادرها بقوله: معنى هذا أنك لست في طريقك إلى منزلي. إلى أين ستذهبين بي؟

فقالت ريناتا: وهل لديك اعتراض؟

- نعم، فيما أظن. تُرى أهو اختطاف؟ ولماذا؟

- لأنني بحاجة ماسّة إليك، كما أنه يوجد آخرون بحاجة إليك أيضاً. ألا يطيب لك هذا؟

- كان سيسرّني هذا لو أنني سُئلت الاختيار.

- وهل كنت ستوافق على أن تصحبني؟

فقال ستافورد: قد أوافق وقد لا أوافق.

- أنا آسفة جداً!

ثم ران عليهما صمتٌ مطبق في حين كانت السيارة تمضي بهما في أحد الطرُق الرئيسية، وأمعن ستافورد النظر ليتبيّن أي طريق يسلكون. إن السيارة تنحرف بهما أحياناً عن الطريق الرئيسي ثم تعود إليه، وكاد يستفسر من رفيقته عمّا إذا كان ذلك الانحراف خوفاً من أن أحداً يتعقّبهما من لندن إلا أنه آثر أن يطبق شفتيه اتّباعاً لما ألزم به نفسه من سياسة الصمت وأن يدع لها فرصة الكلام إذا شاءت.

وأخيراً بلغت بهما السيارة وجهتها، واجتازت بهما الأبواب إلى ممرّ تحفّ به الأزهار القرمزية من الجانبين، ثم توقّفت بهما بعد أحد المنحنيات أمام بيت كبير فقال ستافورد: أعتقد أن هذه هي نهاية رحلتنا، أليس كذلك؟

- لعل البيت لا يروق لك من الخارج.

- ولكنه يتطلّب الكثير من المال للمحافظة عليه واستكمال كل وسائل الراحة لمن يقيم به.

- بالفعل هو بيت لا ينقصه شيء من وسائل الراحة، وإن كان لا يبدو جميلاً من الخارج، فالرجل الذي يقيم به يفضّل الراحة والدّعة على الجمال.

- ربما كان مصيباً في ذلك، وإن كنت أرى أنه يقدّر الجمال في نواحٍ أخرى.

ثم نزل ستافورد من السيارة ومدّ ذراعه ليساعد ريناتا لتحلق به، وتقدّمهما السائق ليعلن قدومهما، ثم التفت إلى السيدة وتساءل قائلاً: ألن تكوني بحاجة إليّ الليلة يا سيدتي؟

- لن أحتاج إليك الليلة. سأتصل بك هاتفياً في الصباح.

- طابت ليلتك يا سيدتي.

ثم سُمع وقع خطوات في الداخل فُتح بعدها الباب على مصراعيه، وكان ستافورد يتوقّع أن يكون القادم كبير الخدم غير أنه رأى مشرفة قد خطّ المشيب شعر رأسها منتصبة القامة قوية الشخصية، من ذلك الطراز الذي يندر وجوده في أيامنا هذه، فقالت لها ريناتا: أخشى أن أكون قد تأخّرت قليلاً.

- السيد في المكتبة، وقد طلب أن تذهبا إليه بمجرّد وصولكما.

* * *

-٩-

تقدّمتهما المشرفة مرتقية الدرَج العريض إلى الطابق الأول، ورأى ستافورد ناي ممّا حوله أنه في بيت رجل ثري. ذهبت المرأة إلى أول الأبواب ففتحته وتنحّت جانباً لتفسح لهما طريق الدخول دون أن تعلن عن اسميهما، وتبع السير ستافورد ناي ريناتا، ثم سمع الباب يوصد خلفه بهدوء.

ورأى بالغرفة أربعة رجال، وقد جلس إلى مكتب كبير غطّته الأوراق والمستندات وخريطة كبيرة أو خريطتان رجل ضخم بدين شاحب اللون، وكان الوجه مألوفاً لديه وإن لم يستطِع أن يذكر اسم صاحبه ولا أين التقى به. نهض الرجل الجالس إلى المكتب ماداً يده إلى يدِ ريناتا قائلاً: ها قد وصلت أخيراً، رائع!

- دعني أقوم بواجب التعارف بينكما، وإن كنت أعتقد أنك تعرفه. السير ستافورد ناي، السيد روبنسون.

فومض في ذهن ستافورد خاطر كالبرق. إنه يعرف صاحب هذا الاسم بالتأكيد، وإن كان يقترن باسم آخر هو اسم بايكواي، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أنه يعرف كل شيء عن السيد روبنسون؛ فهو لا يعرف عنه إلا ما أراد له السيد روبنسون أن يعرفه، وحتى الاسم «روبنسون» قد لا يكون هو الاسم الحقيقي. إنه يعرف

عنه أنه يمثّل كلمة «المال» بأجمل معانيها وكل نواحيها، المال الدولي العالميّ، الوطنيّ والمصرفيّ. إنه يمثل المال، وإن كان مظهره لا يوحي بأنه ثريّ في حين أنه رجل فاحش الثراء؛ فهو يمثّل قوة المال بكل مفهوم الكلمة.

بادره السيد روبنسون قائلاً وهو يصافحه: سمعت عنك منذ يوم أو يومين من صديقنا بايكواي.

وانجلى كل ما غمض على عقل ستافورد؛ فقد استعاد الذكرى الفريدة التي تمّ فيها اللقاء بينه وبين السيد روبنسون بحضور الكولونيل بايكواي، وها هو الآن يلتقي أيضاً بماري آن، أو ريناتا زركوفسكي، التي تحدّث السيد هورشام عنها وعن روبنسون بحضور بايكواي.

ثم انتقل ستافورد بعينيه إلى الثلاثة الآخرين لعله يتعرّف عليهم وعلى دورهم، ولكنه لم يكُن بحاجة إلى الحدس أو إعمال الفكر بالنسبة لاثنين منهم؛ فقد كان الرجل الجالس بجوار المدفأة والمتقدّم في السن معروفاً في جميع أنحاء إنكلترا، وإن كان لا يراه الناس إلا نادراً لأنه رجل عليل معتكف اضطرّه المرض لذلك، إنه السير ألتامونت.

مدّ الرجل يده إلى ستافورد ناي الذي اتّجه إليه، وقال ألتامونت بصوت خافت: معذرة؛ فأنا لا أستطيع النهوض لمرضي. أنت عائد من الملايو، أليس كذلك؟

- بلى.

- أعتقد بأنك لم تجِد في تلك الرحلة أي عناء، ومع ذلك فعلينا أن نشترك في مثل تلك المؤتمرات الظاهرية. يسرني أنهم

أتوا بك الليلة إلينا، وهذا من فعل ماري آن، أليس كذلك؟

إذن هذا هو رأيهم فيها، وهذا هو اسمها لديهم؟ إنه الاسم الذي أشار به هورشام إليها، إذن هي ضالعة معهم. وليس من شك في أن ألتامونت يعمل لصالح إنكلترا وأنه سيظلّ يعمل لأجل إنكلترا إلى أن يُدفَن في مقابر وستمنستر؛ فهو ملمّ بكل شيء عن إنكلترا ورجالاتها ويعرف كل شيء عن أعضاء الحكومة وإن لم يلتقِ بهم.

أردف السير ألتامونت قائلاً: هذا زميلك السيد جيمس كليك.

ولم يكُن لستافورد معرفة بكليك كما أنه لا يعتقد أنه سمع باسمه من قبل. وقد رأى فيه رجلاً قلِقاً لا يستقرّ له قرار حذِر النظرات متوثباً للانقضاض في انتظار كلمة سيده، ولكن مَن سيده؟ هل هو ألتامونت أم روبنسون؟

ثم انتقل ستافورد بعينيه إلى الرجل الرابع الذي نهض عن كرسيه القريب من الباب، وكان كثّ الشارب منطوياً على نفسه وإن كانت في عينيه نظرات مَن لا يغفل عن شيء، فبادره السير ستافورد قائلاً: أهذا أنت يا هورشام؟ كيف حالك؟

- يسرّني أن ألقاك هنا يا ستافورد.

وكانوا قد أعدّوا لريناتا مقعداً بالقرب من المدفأة مع السير ألتامونت، ومدّت إلى هذا الأخير يدها اليسرى فأخذها بين يديه وهو يربّت عليها قائلاً: لقد خاطرت يا صغيرتي، وأنت تخاطرين كثيراً.

فنظرت إليه قائلة: لقد درّبتني على هذا، وهذا هو السبيل الوحيد للحياة.

وترك السير ألتامونت يدها وقال وهو يستدير برأسه إلى السير ستافورد ناي: لم أكُن أنا الذي لقّنك كيف تختارين رجالك، وإنما لك مواهبك الخاصة. إن لي معرفة بعمّتك الكبرى يا سير ستافورد؛ فهي إحدى بقايا العصر الفكتوري، ولعلها قد بلغت التسعين من عمرها. نحن لا نلتقي كثيراً، مرّة أو مرّتين في العام تقريباً، غير أن هذا اللقاء يسعدني دائماً، كما تجدني معجباً بكل ما فيها من قوّة عقلية وبدنية.

ثم انبرى السيد جيمس كليك قائلاً: ناي، دعني أقدّم لك شيئاً تشربه، فماذا تفضّل؟

- قهوة بالحليب إذا تكرّمت.

حمل جيمس كليك القهوة إلى ناي ووضعها فوق المنضدة بجوار السيد روبنسون، ورأى ستافورد ناي أن لا يبدأ الحديث، وتألقت عينا الجالس إلى المكتب وهو يقول: هل لديك أسئلة تريد توجيهها؟

- لديّ الكثير، وإن كنت أرى أن نبدأ بالإيضاحات ثم بالأسئلة.

- ليكُن ما تريد.

- لقد تعرّضت لعملية اختطاف، وهي من الأساليب السائدة في أيامنا هذه، فلماذا؟

- يعجبني اقتصادك في القول! إن ما تراه هو اجتماع خاص،

لجنة تقصّي حقائق في موضوعٍ له أهمية عالمية عريضة.

- يبدو لي أن الأمر شيّق!

- إنه أكثر من شيّق؛ فهو مؤثّر وعاجل. إن أربعة أنماط للحياة ممثّلة بهذه الغرفة الليلة.

ثم أردف السير ألتامونت وقال موضحاً: نحن نمثّل اتجاهات مختلفة، ورغم أنني اعتزلت الحياة العامة في هذه البلاد إلا أنني لا زلت قوة استشارية لها قدرها. وقد سُئلت المشورة وطُلب إليّ أن أرأسِ هذه اللجنة الخاصة المنوط بها تقصّي حقائق ما يجري في عالَمنا، وجيمس هو يدي اليمنى في هذا العمل البالغ الأهمية وهو المتحدّث باسمنا. جيمس، عليك بإيضاح كل شيء لستافورد ناي.

اتكأ جيمس بمرفقيه إلى الأمام وقال: الملاحَظ أن أحداثاً تجري في العالم، والواجب يقضي أن نطيل النظر في الأسباب؛ فالظاهر يختلف عن الباطن، والمهمّ أن ننكبّ على تمحيص تلك الأمور لأنه لكل ظاهرة عواقبها، ولكل ظاهرة مَن يسيطر عليها ويتحكّم فيها، وقياساً على ذلك يجب البحث عن الذين يسيطرون على القوى الصاعدة في أوروبا وآسيا وإفريقيا، ثم في قارتَي أمريكا، وعلينا أن نتحرّى ونبحث حتى نهتدي إلى الدوافع الخفيّة لأن عنصراً واحداً تنفجر منه هذه الدوافع، هذا العنصر هو المال.

ثم أشار إلى السيد روبنسون واستطرد قائلاً: والسيد روبنسون هو خير العارفين بشؤون المال.

فانبرى السيد روبنسون قائلاً: الأمر في منتهى البساطة

لأنه حركات كبرى تعمّ العالَم ولا بدّ من أن يكون استنادها إلى المال، وعلينا أن نهتدي إلى مصدر تلك الأموال، كما علينا أن نميط اللثام عن الاتجاهات العديدة. وهذه الاتجاهات تندرج تحت عنوان واحد، ألا وهو التمرّد والثورة بصورة أو بأخرى ومن بلد إلى آخر. أتراني قد أوضحت؟

فنظر روبنسون إلى ألتامونت الذي قال: نعم، لقد أحسنت. إنها حركات تنتشر كالوباء، ويضاعف من انتشارها أولئك الذين أوتوا القدرة على إثارة حماسة مَن يستمعون إليهم، وتلك القدرة لا تكمن في الكلمات المسموعة بقدر ما تكمن في الطاقة المغناطيسية لهؤلاء، حركةً وصوتاً وإيماءً.

فتحرّك ناي في مقعده قائلاً: أنا أُدرك ما تعني، وما تقوله جدير بالتدبّر.

- أرجو أن لا ترى فيه مبالَغة.

- لا، لا أرى شيئاً من ذلك؛ فلم يعُد يوجد في عالمنا هذا ما هو مبالَغ فيه. بالمناسبة، هل أستطيع أن أوجّه سؤالاً؟ ماذا نستطيع أن نفعل إزاء هذه الظواهر؟

فأجاب ألتامونت قائلاً: إذا ساورك الشك فيما يجري من أمور فيجب في البدء أن تبحث عن مصدر المال ومكان الرأس المدبّر، وهذا الذي نحاول عمله، وهذا ما نريد منك أن تعيننا عليه.

ولم يتحدّث كثيراً؛ فشعر السير ناي بأنه أُسقط في يده، فراح ينقل البصر من رجل إلى آخر متأمّلاً كل واحد منهم قليلاً، ثم توقّفت عيناه على تلك السيدة الجالسة بهدوء والتي اصطحبته

إلى تلك الغرفة، ريناتا زركوفسكي الشهيرة بماري آن ودافن تيودوفانوس سابقاً.

لم يحدّثه وجهها بشيء، ورأى أنها تكاد تنكر وجوده، وأخيراً اتّجه بنظره إلى السيد هنري هورشام رجل الأمن، فدُهش حين وجده يبتسم له، فبادره ستافورد قائلاً: اسمعوا جيداً لما أقول، أين مكاني من كل هذا؟ ماذا أعرف؟ أصارحكم القول بأنني لست من الرجال البارزين في مهنتي، فرأي وزارة الخارجية في شخصي رأي متواضع.

قال ألتامونت: نعرف هذا.

وابتسم جيمس كليك وعقّب قائلاً: قد يكون في ذلك بعض الخير.

وقال السيد روبنسون: هذه لجنة تقصّي حقائق، ولا يعنينا ما فعلت في الماضي أو رأي الآخرين فيك في كثير أو قليل. لقد طلبنا إليك الانضمام إلينا لأننا رأينا أنك ستكون خير عون لنا.

فاستدار ناي صوب رجل الأمن قائلاً: وما رأيك يا هورشام؟ أنا لا أصدّق أنك توافق على ذلك.

فقال هنري هورشام: ولِمَ لا؟

- وعلى أي أساس اتّخذتم هذا القرار؟ وما هي الصفات التي رشّحتني؟ أنا لا أكاد أصدّق نفسي!

فقال هورشام: لأنك لست ممّا يقدّسون الأبطال، ولا تعنيك تلك الهالات التي يحيط الناس بها أنفسهم أو يضفيها عليهم الآخرون.

فدار بخلد ستافورد أن ما سمعه من تعليل يدعو إلى التساؤل، فهل صفته البارزة كرجل لا يحمل الأمور على محمل الجِدّ هي التي رشّحته لمثل هذا العمل الجاد العسير؟ ثم قال: أجد لزاماً عليّ أن أحذّركم، فما يعيبني وما أساء إليّ في حياتي هو المعروف عنّي أنني لست بالرجل الجاد الذي يصلح لعمل كهذا.

فقال هورشام: صدّق أو لا تصدق، إن ما يعيبك هو أحد الأسباب التي أيّدت ترشيحك! أليس كذلك يا سير ألتامونت؟

فقال السير ألتامونت: إنها خدمة عامة. دعني أقُل بأن أكبر عيوب ذوي المناصب العالية المبالغة في التظاهر بالصرامة والجِدّ، وقد علمنا أنك لست من ذلك الطراز، وهذا هو الذي حدا بنا إلى اختيارك، وهذا أيضاً رأي ماري آن فيك.

فالتفت ستافورد إليها، إذن فها هي تُعرف بماري آن، ولم تعُد ريناتا، فاتجه إليها وسألها قائلاً: ما هي حقيقة أمرك؟ أعني هل أنت كونتيسة حقاً؟

- بكل تأكيد، فقد كان لأبي شأنه وكانت له قلعة في بافاريا، وهي لا تزال في موقعها. وفي عالمنا تتقدّم الكونتيسة على المليونير الأمريكي الذي يملك ثروة خيالية في المصارِف مهما كانت فقيرة.

- وماذا عن دافن تيودوفانوس؟

- إنه اسم يُنتفَع به في جوازات السفر؛ فقد كانت والدتي يونانية.

- وماذا عن ماري آن؟

وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يراها فيها تبتسم، ونظرت إلى ألتامونت ثم إلى السيد روبنسون وقالت: ربما كان هذا الاسم متّفِقاً مع حقيقة أمري بأنني أقوم بكل شيء وأذهب إلى كل مكان وأنتقل من هنا إلى هناك، إلى آخِر ما هو من هذا القبيل. أتراني قلت الصدق أيها العم نيد؟

ونظرت إلى ألتامونت فقال هذا: كل الحق يا صغيرتي. لقد كنت وستظلين معنا دائماً يا ماري آن.

ثم استطرد ستافورد أسئلته لها قائلاً: وهل كنت تحملين شيئاً بتلك الطائرة؟ أعني تنقلين شيئاً هاماً من بلد إلى آخر؟

- نعم، لقد كان هذا واضحاً، ولولا العون الذي قدّمته لي لما كنت هنا الآن.

- ماذا كنت تحملين؟ أم ليس من حقي أن أسألك عن ذلك؟ أم يوجد ما لن أعرف كنهه أبداً؟

- ثمة الكثير من هذا القبيل، أما سؤالك الأخير فأعتقد أنني سأُجيب عنه إذا أُذن لي بهذا.

ثم عادت تنظر إلى ألتامونت مرّة أخرى فقال لها: أنا أثق بحُسن تقديرك للأمور فأشبعي فضوله.

- لقد كنت أحمل معي شهادة ميلاد، ولن أصارحك بأكثر من هذا.

فأدار ستافورد عينيه وسط الحاضرين قائلاً: ليكُن، سأنضمّ إليكم، ويسرّني أن تجدوا فيّ العضو الصالح. ما هي

أولى خطوات العمل؟

- سنغادر معاً هذا القصر غداً وسنسافر إلى ألمانيا، ولعلك علمت بأمر المهرجان الموسيقي الذي سيُقام في بافاريا، أليس كذلك؟ إنه مهرجان استُحدث منذ عامين فقط ويندرج تحت اسم ألماني هو «جماعة المغرّدين الشبّان»، وهي جماعة تتلقّى المعونات من بعض البلدان وتحظى بتأييد البعض، كما تلقى المعارضة الشديدة من آخرين.

- لقد سمعت بها، وهل سنحضر المهرجان؟

- نعم؛ فلدينا مقاعد محجوزة لحفلتين.

- وهل لتلك الحفلات أهميّة خاصة بالنسبة لما نقوم به من تحرّيات؟

- لا، يحسُن أن نطلق عليها جواز مرور؛ فنحن نذهب إلى تلك الحفلات كتمهيد لما بعدها من خطوات أخرى.

فنظر إلى الجالسين وسأل قائلاً: هل من تعليمات أخرى؟ هل من توجيهات؟

فقال السيد روبنسون: ليس بهذا المفهوم، أنت ذاهب إلى رحلة استطلاعية، وستعلم الكثير في كل خطوة تخطوها، أنت ستسافر بشخصك غير مزوّد بأكثر ممّا تعرف في الوقت الحاضر، ستذهب كمحب للموسيقى وكدبلوماسي يرجو أن يزيل عن نفسه الملل، فهذا أفضل وأكثر أمناً. ستكون المسافر على غير هدى من بلد إلى آخر ومن مركز للقوى إلى مركز غيره، سيكون في وسعك أن تجمع من المعلومات كل ما له نفع وفاعلية، وعليك

أن تُعنى بحركات الشباب لأنه توجد منظّمات قويّة للشباب في كل مكان تحضّ على كراهية الحكومة وعصيان الآباء والخروج على التقاليد الموروثة والارتداد عن الدين واعتناق شريعة العنف، ليس للحصول على المال وإنما حباً في العنف لذاته. كل هذه الظواهر تثير قلق المسؤولين في جميع الأقطار، ومهمّتك هي تعقّبها والتعرّف على كل ما يتّصل بها: مَن، وماذا، ولماذا، وأين؟ تلك هي الأسئلة التي تتركّز عليها مهمّتك، وهذا ما يجب أن تهتدي إلى سرّه أنت وماري آن، وليس هذا بالشيء اليسير الهين. وأوصيك بكتمان كل سرّ تُميط اللثام عنه وتصل إلى كُنهه؛ فنزعات البشر تميل إلى إظهار العلم ببواطن الأمور تأكيداً لأهمية شخصية المتحدّث.

ثم أغمض السيد روبنسون عينيه إيذاناً بانتهاء اللقاء، فنهضت ريناتا وحذا ستافورد حذوها، ثم سمع روبنسون يقول له: أرجو أن تقضي ليلة هادئة وتستمتع بنوم هادئ؛ فقد أُعدّ هذا البيت بحيث تتوافر فيه كل أسباب الراحة.

فتمتم ستافورد بأنه واثق من ذلك. وما إن أسند رأسه فيما بعد إلى وسادته حتى استسلم للنعاس.

* * *

-١٠-

غادرا مسرح مهرجان الموسيقى إلى نسيم الليل المنعش، وكانت ريناتا ترتدي ثوب السهرة من القطيفة السوداء، كما كان ستافورد ناي مرتدياً سُترة السهرة برباط عنقها الأبيض وقال: يا له من حفل ممتاز! لقد أُنفق في سبيله الكثير. إن أكثر الجمهور من الشباب، وما أظن أن لهم قدرة على هذه النفقات.

فقالت ريناتا: أعتقد أن هذه أمور تُدبّر من الإعانات.

- أجل.

ثم اتجها صوب المطعم الكائن على سفح الجبل، وقال ستافورد: أمامنا ساعة لتناول الطعام، أليس كذلك؟

فردّت ريناتا قائلة: ساعة وربع على وجه التحديد.

- إن معظم المشاهدين أو كلهم من عشّاق الموسيقى.

- معظمهم كذلك فعلاً، ولهذا أهميته!

- ماذا تعنين؟

- أعني أن حب الموسيقى يجب أن يكون أصيلاً فيهم.

- لم أفهم ما تعنين على وجه التحديد.

- إن هؤلاء الذين يمارسون العنف وينظّمون له يجب أن

يحبّوا العنف ويطلبوه ويتحمّسوا له، فأنت تجد في كل حركة من حركاتهم طابع الافتتان المتّسم بالرغبة في الأذى والتدمير، وهو نفس الوضع بالنسبة للموسيقى؛ إذ يجب أن تتذوّق الأذن كل دقيقة من الألحان وجمال الإيقاع، بمعنى أن كلاً من الإحساسَين يجب أن يكون متأصّلاً في النفس.

- هل تعنين أن بوسعك الجمع بين العنف وحب الموسيقى أو حب الفن؟

فقالت ريناتا: نعم، وإن لم يكُن هذا من الأمور الهيّنة دائماً، ويوجد كثيرون في وسعهم هذا، ولا شك في أنه من الخير عدم الجمع بين الدورَين.

قال ستافورد: أجل، وليحب عشاق الموسيقى موسيقاهم ويحب مَن يمارسون العنف عنفهم، أليس هذا أفضل؟

- بلى، أعتقد هذا.

- لقد استمتعت بهذين اليومين، وإن كنت لم أستمتع بكل الموسيقى التي سمعت لأن تذوّقي للحديث منها ليس كاملاً.

- هذا حق.

- أنا لا أكاد أفهم ماذا يعني هذا كله. فأنا لم أتعلّم شيئاً، كما أنني لم أكتشف شيئاً.

فقالت ريناتا: عليك أن تتذرّع بالصبر، إنه عرض مسرحي فاخر يسانده ويطالب به الشباب ويموّله...

- مَن يا تُرى؟

- هذا ما لم نعرفه، ولكننا ستعرف كل شيء.

- يسرّني أنك واثقة من ذلك.

وكانا قد بلغا بسيرهما المطعم حيث جلسا إلى إحدى موائده، والتقى ناي باثنين من معارفه أبديا دهشتهما وسرورهما بهذا اللقاء، وكان الذين تعرفوا على ريناتا أكثر عدداً وأوسع دائرة من النساء والرجال على حد سواء ومن مختلف الجنسيات، من الألمان والنمساويين والأمريكيين، وكان حديث الجميع عن العرض الموسيقي.

كانوا جميعاً في عجلة من أمرهم لِقِصر فترة الاستراحة، ولكي يعودوا إلى مقاعدهم في الوقت المناسب، وبعد انتهاء العرضين الباقيَين غادرا المسرح إلى حيث وجدا السيارة في انتظارهما لنقلهما إلى الفندق الصغير بالقرية. وبعد أن ألقى ناي بتحيّة المساء على ريناتا قالت بصوت خافت: كن مستعداً في الساعة الرابعة صباحاً.

ثم أسرعت إلى غرفتها، وأسرع هو أيضاً إلى غرفته. وفي تمام الساعة الرابعة إلا ثلاث دقائق من صباح اليوم التالي سمع طرْقاً خفيفاً على باب غرفته، ففتح الباب ليجدها أمامه قائلة: السيارة في الانتظار، هيا بنا.

* * *

تناولا طعام الغداء في حانة صغيرة، وكان الطقس بديعاً ومنظر الجبال رائعاً، وكان لا يفتأ يتساءل فيما بينه وبين نفسه عمّا أتى به إلى هذا المكان. وكانت رفيقته في السفر تزداد غموضاً ولا تتحدّث إلا قليلاً، ثم وجد نفسه يتأمّل وجهها خلسة ويتساءل في نفسه قائلاً: تُرى إلى أين تقودني؟ وفيمَ كل هذا العناء؟

وأخيراً قال وقد كادت الشمس أن تغرب: إلى أين نحن ذاهبان؟

- قد لا تجد في الإجابة عن سؤالك ما يشبع فضولك.

فراح يتأمّلها وهو مستغرق في التفكير. وكانت ترتدي معطفاً من الصوف وثوباً بسيطاً من ثياب السفر أجنبي الصنع، فقال لها: هل أدعوك ماري آن؟

- لا، ليس بعد، لا زلت الكونتيسة زركوفسكي.

- أتراك في موطنك الأصلي؟

- لقد نشأت طفلة في هذه الناحية من العالم، وكنا نزور هذه الربوع في خريف كل عام.

- هذه هي بلاد هتلر، أليس كذلك؟ نحن لا نبعد كثيراً عن بريختسجاون، أليس كذلك؟

- إنها تقع في الشمال الشرقي.

- هل كان أصدقاؤك يؤمنون بهتلر؟

- كانوا يكرهونه، وإن كانوا مُضطرّين إلى تمجيده.

- وما هي وجهتنا؟

- هل يعنيك هذا كثيراً؟

- ألسنا في رحلة استطلاع؟

- بلى، ولكنها ليست رحلة استطلاع جغرافية. نحن في طريقنا إلى لقاء إحدى الشخصيات.

- أنت تشعرينني وكأننا في طريقنا لزيارة أمير الجبل.

- تعني أمير الحشّاشين، ذلك الذي كان يحرص على أن يتعاطى أتباعه المخدّرات كي يستميتوا في الدفاع عنه؟ تباً لأولئك المضلّلين الذين عرفتهم كل العصور والذين جعلوا من أتباعهم بشراً مستعدّين للموت من أجلهم. لقد كان هتلر من هؤلاء وكان أتباعه هم المآخذون، ومهما يكُن من أمر فأنا أتساءل عمّا حدا بك إلى الحديث عن رجل الجبال العتيد.

- هل أفهم من هذا أن هذا الرجل موجود؟

- لا، ليس برجل؛ فد تكون أميرة الجبل.

- أميرة الجبل؟ وكيف تبدو؟

- سوف ترى هذا المساء.

- وماذا نحن فاعلون في أمسيتنا هذه؟

- نحن في طريقنا إلى مجتمعٍ ما.

- يبدو لي أنه قد انقضت فترة طويلة منذ أن انتحلت شخصية ماري آن لآخِر مرّة، أليس كذلك؟

- عليك أن تنتظر إلى أن نقوم برحلة جويّة أخرى. بالمناسبة يجب أن تتوخى الحذر الليلة.

- هل توجد تعليمات؟

- أنت من المتذمّرين الساخطين ومن العصاة السرِّيِّين. هل وعيت قصدي؟

- نعم، وسأحاول أن أكون هذا الرجل.

وركبا السيارة التي حملتهما عبر المنحدرات وقُرى

الجبال، ثم انحرفت بهما إلى إحدى الغابات حيث رأى ستافورد بعض الحيوانات الشاردة وبعض الرجال الذين يحملون البنادق ويرتدون معاطف الجلد، لعلهم كانوا من حرّاس الغابة.

ثم بلغت بهما السيارة مكاناً تشرف عليه قلعة بُنِيت على صخرة شامخة. كانت في ضخامتها تمثّل سلطان الماضي، وكان أحد جوانبها قد تخرب ثم أُعيد بناؤه وإصلاحه. ثم سمع ريناتا تقول: لقد كان ذلك البناء في البداية مقراً للدوقة ليختنشتولز، وقد شيّد القلعةَ الغراندوق لودفيج عام ١٧٩٠.

- ومَن الذي يقيم فيها الآن؟ الغراندوق الحالي؟

- لا، لقد انقرضوا جميعاً.

- مَن يقيم فيها في الوقت الحاضر؟

- أحد ذوي السلطان في أيامنا هذه.

- سلطان المال؟

- تقريباً.

- أتُراه السيد روبنسون وقد سبقنا جواً إلى هنا؟

- إنه آخِر مَن ستلقاه هنا، كُن واثقاً من ذلك.

- يا للأسف! لقد أُعجبت بالسيد روبنسون كثيراً. ما هي حقيقة أمره؟

- لا أعتقد أن أحداً يعرف الإجابة على هذا السؤال؛ فأنت تسمع الأقوال المتضاربة عن حقيقة أمره، فالبعض يقول إنه تُركي والبعض يقول إنه هولندي وغيرهم يقول إنه إنكليزي،

ويوجد من يقول إن والدته شركسية أو هندية، إلى آخِر هذه الأقوال المتضاربة والتكهّنات التي تزيد الأمور غموضاً.

ثم توقّفت بهما السيارة أمام باب ضخم، فأسرع إليهما اثنان من الخدم بزيّهم الخاص، وقاما بحمل حقائبهما العديدة إلى القلعة وإلى الغرفة المخصّصة لكل منهما.

وعادا ليلتقيا قبل العشاء، فوقف ستافورد في البهو ينتظرها بعد أن رآها تهبط الدرَج بجلال وبهاء، ثم تقدّمهما أحد الخدم ليفتح الباب على مصراعيه قائلاً: الكونتيسة زركوفسكي والسير ستافورد ناي.

ومهما يكُن من أمر ما كان يتوقّع رؤيته فإنه لم يكُن يجول بخاطره أنه سيرى ما رأى؛ فقد وجد نفسه في قاعة فخمة فسيحة مؤثّثة بأفخر الرياش والسّجاد وقد ثُبتت على جدرانها لوحات لأشهر الرسامين العالميين، وفوق أحد المقاعد الكبيرة الذي يبدو وكأنه عرش عظيم كانت تجلس سيدة ضخمة بدينة مكتنزة الوجه، ترتدي ثوباً من الساتان البرتقالي وتضع على رأسها تاجاً مرصّعاً بالأحجار الكريمة، وكان في إصبع من أصابعها خاتم من الألماس رائع نادر الوجود.

وعلى الرغم من كل هذا الجلال والبهاء وما أحاطت به نفسها من فاخر الرياش فقد كان ستافورد يراها بشعة وهي تتفحّصه بعينيها السوداوين اللتين تشعّان دهاء وذكاء، ثم دار بخلده السؤال عن السبب في كل ما يمرّ به. وظلّت أنظارها متعلّقة به وكأنها عميل يحاول تقييم سلعته ثم قالت: لقد حافظت على موعدك يا صغيرتي.

وكان صوتها خشناً عميقاً، فتقدّمت ريناتا منها وحيتها بانحناءة وقبلة خضوع على يدها وهي تقول: دعيني أقدّم لك السير ستافورد ناي، الكونتيسة شارلوت فون فالدشوسين.

ومدّت السيدة إليه يدها فأمسك بها كي يحييها تبعاً للتقاليد الأجنبية، ثم فوجئ بها تقول: أنا أعرف عمّتك الكبرى.

فوقف يحملق إليها ولم ينطق بكلمة، وخُيل إليه أنها استمتعت بهذه المفاجأة وبوقعها عليه، ثم رآها تضحك قائلة: لنقُل إنه كانت لي بها معرفة سابقة؛ فقد انقضت أعوام كثيرة دون أن نلتقي. لقد كنا معاً في سويسرا بلوزان في عهد الصبا، ولكنها أكبر منّي عمراً. أتراها بصحّة جيدة؟

- بالنسبة إلى سنّها، يمكن أن أُجيب بأنها بصحة جيدة.

- هل تعرف شيئاً عن زيارتك لي؟

- ليست لديها أية فكرة عن هذه الزيارة؛ فهي تعرف فقط أنني كنت مدعواً إلى مهرجان للموسيقى العصرية.

- أرجو أن تكون قد استمتعت بهذه الموسيقى.

- غاية الاستمتاع، لقد كانت دار الأوبرا رائعة.

- لقد أُنفق الكثير على تلك الدار.

وسمعها تذكر رقماً يبلغ الملايين من الماركات، ورآها قريرة العين بما كان للرقم الكبير من وقع في نفسه، ثم استطردت قائلة: بالمال والمعرفة والقدرة وحُسن التمييز يفعل المرء كل شيء، وبالمال تحصل على أحسن الأشياء.

فقال وهو ينظر إلى ما حوله: هذا ما ألمسه هنا.

ثم سمعها تسأل قائلة: وأين التقيت برجلنا؟

- في السفارة الأمريكية بلندن.

- أجل، هذا ما قيل لي، وكيف حال... لقد نسيت اسمها، آه... ميللي جين الجميلة، أليست كذلك؟

- ساحرة دائماً. لقد صادفت نجاحاً كبيراً في لندن.

- وماذا عن سام كورتمان البليد الخامل سفير الولايات المتحدة؟

فقال ناي بلباقة: إنه رجل متّزن عاقل.

فأطلقت ضحكة استخفاف ثم قالت: أنت رجل كيّس، ألست كذلك؟ ليكُن، لا بأس به حيث هو؛ فهو يصدع بما يُؤمر به كرجل سياسيّ، وكذلك يُمكّن لميللي أن تقوم عنه بما لا طاقة له به، وإن كان لها من ثروتها خير معين؛ فوالدها يمتلك نصف آبار بترول تكساس، أضف إلى ذلك ضِياعه ومناجمه الأخرى. إنه مثال حيّ لكبار أثرياء الأمريكيين، وعلى الرغم من ذلك فهي تتحلّى بالبساطة مع أرستقراطية متّزنة. وماذا عنك أنت؟ ألست من الأثرياء كما يبدو؟

- كنتُ أرجو أن أكون منهم.

- إن وزارة الخارجية لم تعُد كريمة في أيامنا هذه.

- ولكنها تتيح لمن يعمل بها مشاهدة الكثيرة من البلاد والاجتماع بكثير من الناس والطواف بأنحاء العالَم ليرى ما يحدث فيه.

- بعض ما يحدث وليس كل ما يحدث.

- قد يكون هذا من المتعذّر.

- ألم تعتمل في نفسك الرغبة في رؤية ما يجري وراء الستار؟

فقال لها: بلى، أحياناً يدور بخلدي شيء من هذا القبيل.

- لقد سمعت ما يقال عنك وعن خواطرك وآرائك في بعض الأمور. إنها ليست ممّا تعارف عليه الناس.

- لقد شعرت بأنني شرّير الأسرة أحياناً.

وكان ستافورد يضحك وهو يقول هذا، فشاركته شارلوت ضحكته ثم سألته فجأة قائلة: ماذا تريد من الحياة أيها الرجل؟

- لا شيء، ولست أبالي بشيء.

- هيا، هل تريد منّي أن أصدّق هذا؟

- نعم، يمكن أن تصدّقي هذا؛ فلست بالشخص الطموح. هل ترينني أبدو غير ذلك؟

- في الواقع، لا.

- إن كل ما أبغيه من الحياة هو أن أستمتع بها في دَعة واعتدال ومسرّة.

فاعتدلت السيدة في مقعدها وفتحت عينيها وراحت ترمقه بنظراتها قبل أن تقول بصوت مختلف النبرات: هل في وسعك أن تكره؟ هل تعرف الكراهية؟

- في الكراهية تبديد للعمر.

- فهمت. لست أرى في وجهك ملامح السخط وعدم

الرضا، وهذا حق لأنني أرى فيك الشخص المستعدّ لأن يسلك طريقاً معيّناً ينتهي به إلى مكان معيّن، وهو يمضي فيه مبتسماً وكأنه لا يعبأ بشيء، وفي نهاية الأمر إذا ما وجدت مَن يأخذ بيدك مخلّصاً فسوف تحصل على ما تريد إذا ما كانت لك هذه الإرادة.

- ومَن ذا الذي لا يريد ذلك؟ أنت نافذة البصيرة وترين كل شيء!

وحينئذ فُتح الباب على مصراعيه ليعلن الخادم عن إعداد العشاء. وكان من الطبيعيّ أن يكون العشاء ملَكياً في قاعة طعام فاخرة بكل ما تعنيه الكلمة من ترف وأُبّهة وروعة. وأحاطت بصاحبة الفخامة سيّدتان وقد عقصت كل واحدة منهما شعرها الأشيب فوق رأسها، ورأى ناي أنهما بمثابة وصيفات الشرف.

وكان في القاعة حرَس خاص من الرجال العمالقة المرتدين زياً خاصاً، وما إن سارت شارلوت إلى القاعة حتى شهر الرجال السيوف بحيث تلتقي أطرافها أعلى رأس شارلوت التي سارت تحتها بجلال وعظمة متّجهة صوب مقعدها المطعّم بالذهب عند رأس المائدة المستطيلة، فسأل ناي نفسه قائلاً: تُرى ما حقيقة هذه المرأة؟ ومَن تكون؟ وماذا تفعل هنا؟

ثم جاء آخرون للاشتراك في تناول العشاء وهم يرتدون ثياب السهرة. وبعد أن أدّوا التحية الواجبة للجالسة فوق عرشها على رأس المائدة اتخذ كل منهم مكاناً له دون القيام بإجراءات التعارف التقليديّة. وفي أثناء تناول الطعام المتعدّد الأصناف سُمِع صوت بالخارج، صوت محرّك قوي لسيارة سباق، ثم أعقب

الصوت صوت جماعيّ صادر عن الحرَس الخاص قائلاً: هايل، هايل فرانز.

ثم أتى رجال الحرس الخاص بحركة عسكرية منتظمة، فنهض الجميع وقوفاً فيما عدا سيدة القلعة، فساد القاعةَ جوّ من الإثارة وأسرع بقيّة الضيوف بالانسحاب، ثم تقدّم رجال الحرس من السيدة العظيمة يحيّونها التحيّة العسكرية بالسيوف، ثم انسحبوا بعد أن أومأت إليهم سيّدتهم بالموافقة.

وبعد مغادرتهم الغرفة اتجهت السيدة بنظرها إلى ريناتا ومن بعدها إلى ناي قائلة: ماذا ترون في هؤلاء الشبّان البواسل؟

فقال ناي معقّباً: إنهم في غاية الروعة يا سيدتي.

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة الرضا، ولكن الابتسامة لم تزِد وجهها إلا بشاعة. يا لها من امرأة مرعبة! إنه ما كان ليصدّق سماعاً أن مثل تلك الأمور تجري وأن مثل تلك القلعة موجودة بكل ما فيها.

ثم فُتح الباب على مصراعيه للمرّة الثانية وأقبل شباب الحرس مرّة أخرى، ولكنهم لم يكونوا شاهرين سيوفهم بل أقبلوا ينشدون لحناً جميلاً بأصوات متّسقة النبرات مدرّبة أحسن تدريب. وكان اللحن من الألحان المألوفة لديه، وكان يصاحب الإنشادَ عزفٌ موسيقي صادر من حيث لا تُرى الفرقة، كان اللحن من ألحان فاغنر.

ثم اصطفّ رجال الحرس تأهّباً لاستقبال القادم الذي تجلس السيدة في انتظاره، وأخيراً أقبل الوافد المنتظر فتغيّر الإنشاد إلى ذلك اللحن الذي يعيه ناي عن ظهر قلب، لحن

«سيغفريد الشاب». وعبر الباب وبين صفّي الأتباع المخلصين تقدّم شاب من أكثر الشباب وسامة لم يسبق لستافورد أن وقعت عيناه على ندّ له من قبل، ذهبيّ الشعر أزرق العينين مكتمل الجسم وكأنه فارس من فرسان الأساطير والخيال بكل ما يحيط بهم من بهاء وعنفوان وزهو.

خطا بخطوات ثابتة بين صفّي الحرس الخاص إلى أن وقف أمام السيدة المتربّعة على عرشها وركع على إحدى ركبتيه، ثم أمسك بيدها وطبع عليها قبلة التبجيل واعتدل واقفاً ماداً ذراعيه مردّداً تلك التحيّة التي سمعها ناي من الآخرين قائلاً: هايل.

ولم تكُن ألمانيّته واضحة كل الوضوح، وإن تبيّن فيها عبارة «هايل للأم العظيمة»، ثم تلفّت القادم الوسيم حوله فبدا وكأنه تعرّف على ريناتا، ثم وقعت عيناه على ستافورد فلاح فيهما وميض الاهتمام والتقدير، فتردّدت في ذهن ناي كلمة الحذر ودار بخلده أنه يجب أن يؤدّي دوره خير أداء، دوره المرتقَب منه، ولكن ماذا يكون ذلك الدور على وجه التحديد؟ وفيمَ كان مجيئه بصحبة تلك الفتاة إلى ذلك المكان؟ ولماذا؟ وأخيراً نطق البطل قائلاً: هكذا أرى ضيوفاً، مرحباً بكما.

قال ذلك بلهجة مَن يرى في نفسه أنه من طراز متفوّق على غيره، بنبرات كلها صلف وكبرياء وغطرسة. ثم سُمعت دقات ناقوس كبير عن بُعد، دقات متميّزة لها رنينها الخاص، فقالت شارلوت العجوز: يجب أن نأوي إلى فراشنا الآن، وسنعود إلى الاجتماع معاً غداً صباحاً في تمام الحادية عشرة.

ثم نظرت إلى كل من ريناتا وناي واستطردت قائلة: أرجو

لكما نوماً هادئاً.

وكان ذلك بمثابة أمر ملكي بالانصراف، ورأى ناي ذراع ريناتا يرتفع بالتحيّة الفاشية، ولكنها لم تكُن موجّهة إلى شارلوت بل كانت موجّهة إلى البطلِ الذهبي الشعر قائلة: هايل فرانز جوزيف. فحذا حذوها قائلاً: هايل.

ثم تحدثت شارلوت إليهما قائلة: هل تحبّان أن تبدءا يومكما غداً بالركوب إلى الغابة؟

فقال ناي: بودّي لو تحقّق لي هذا.

- وماذا عنك يا صغيرتي؟

- نعم، وأنا أيضاً.

- حسناً، سأُصدر أمري بإعداد كل شيء. طابت ليلتكما، ويسرني أن أرحّب بكما هنا. فرانز جوزيف، إليّ بذارعك؛ سننتقل إلى الغرفة الصينية لأنه لدينا الكثير ممّا يجب أن نتدارسه قبل أن ترحل في صباح الغد.

قاد الخادم ريناتا وستافورد كل إلى غرفته، وتردّد ناي قليلاً قبل أن يخطو إلى الغرفة. تُرى هل يستطيع أن يتبادل معها كلمة أو كلمتين؟ ولكنه عدل عن هذا بعد لحظة؛ فمن الخير لهما أن يتوخّيا الحذر ما داما قد ضمّتهما جُدران تلك القلعة. مَن يدري؟ فقد تكون الغرفة مزوّدة بأجهزة تصنّت.

* * *

-١١-

بعد أن تناول ستافورد طعام إفطاره في صباح اليوم الثاني بغرفة الطعام الصغيرة بالطابق الأرضي وجد ريناتا في انتظاره، وكانت الجياد مُعدّة لهما أمام الباب. ورأى ريناتا تتحدّث إلى الصبي الذي كان يمسك بزمامها بعد أن امتطيا صهوة الجياد، ثم نظرت ريناتا إلى ستافورد وقالت: كان يسألني عمّا إذا كنت أحب أن يصحبنا فقلت له لا؛ فأنا أعرف المكان جيداً.

- هل تردّدت على هذه القلعة من قبل؟

- ليس مؤخراً، بل كان ذلك في مطلع حياتي.

فرمقها بنظرة حادّة ولكنها أشاحت عنه بوجهها، فراح يتأمّل وجهها الجانبي معجباً بأنفها الأقنى ورأسها الشامخ باعتزاز بالنفس فوق جيدها الجميل. ولكنه كان يشعر بضيق نفسيّ لم يعرف له سبباً. ثم عادت به الذاكرة إلى استراحة المطار والمرأة التي أقبلت لتجلس بجانبه وإلى قدح القهوة، لم يكُن كل ما حدث في الحسبان. لقد وجد نفسه يقبل المخاطرة بحكم غريزته، وها هي تلك المخاطرة تتطوّر به فتنقله إلى عالَم لا يعرف عن حقيقته شيئاً.

ثم توغّلا في الغابة حتى وجد نفسه منفرداً بريناتا حيث لا أجهزة تصنّت ولا جدران لها آذان. لقد آن الأوان كي يوجّه ما

يشاء من أسئلة فقال: مَن هي؟ وما هي حقيقة أمرها؟

- الإجابة عن أسئلتك يسيرة، وهي من اليسر بحيث يصعب عليك تصديقها.

- حسناً، من هي؟

- هي البترول والنحاس ومناجم الذهب في جنوب إفريقيا، وهي مصانع السلاح في السويد، ومواقع اليورانيوم في الشمال، وهي الطاقة النووية، هي كل هذه الأشياء معاً.

- ومع ذلك فلم أسمع بأمرها من قبل، ولست أعرف شيئاً عمّن تكون.

- لأنها لا تريد ذلك.

- هل يمكن كتمان مثل هذه الأمور؟

- نعم، المال يصنع كل شيء.

- ولكن... مَن هي فعلاً؟

- كان جدّها أمريكياً تزوج بألمانية، وأعتقد أنك سمعت عنها «بيغ بيلندا»، وكانت تمثل مصانع السلاح والسفن وقدراً كبيراً من ثروة أوروبا الصناعية لأنها كانت الوارثة الوحيدة لوالدها، فإذا ما جُمعت تلك الثروة مع ثروة الزوج الممثّلة في السكك الحديدية بأمريكا حينذاك، لوجدت المال والقوة والنفوذ والسلطان. لقد ورثت صاحبتنا هذا كله واستزادت منه وحالفها الحظّ وحُسن الطالع. إن المال يأتي بالمال.

- أعرف هذا، ولكن ماذا تريد؟

- السلطان والقوة.

- هل تقيم هنا؟

- إنها تقوم بزيارات لأمريكا والسويد من آن لآخر، ولكنها تفضّل الإقامة هنا في هذه القلعة التي تُعَدّ بمثابة مركز نسيج العنكبوت حيث تمسك بخيوطه وتسيطر عليها، وهي خيوط من المال والفنون والموسيقى والتصوير والأدب.

- كل هذا بين يدي امرأة عجوز مترهّلة بشعة! هل هي قائمة بذلك؟

- ليس بعد، وإن كانت في سبيلها إليه.

- وماذا تريد زيادة على كل ذلك؟

- إنها تحب الشباب لأنها ترى فيهم نموذجاً للقوة. العالَم زاخر بالشباب المتمرّد الثائر، وهي تستهدف السيطرة عليهم.

- وكيف يُتاح لها ذلك؟

- لا أدري على وجه التحديد. إنه تجمّع هائل له شُعَبه وفروعه التي تسانده وتموّله بوسيلة أو بأخرى، وهو لم يُستكمَل بعد تنظيماً، إنه بمثابة رسالة لتحقيق الأماني والآمال الموعودة كتلك التي تعلّقت بها جماعات كثيرة كجماعة الحشّاشين.

- وهل لها علاقة بتعاطي المخدرات؟

- نعم، كوسيلة لإخضاع الناس لإرادتها أو للقضاء عليهم، على الضعفاء منهم، وبالتحديد على مَن ترى أنه لا نفع منهم. أما هي فلا تتعاطى المخدرات ولا تقربها؛ فهي قوية ذات شخصية، أما المخدرات فهي داء الضعفاء من الناس.

- وماذا عن القوة؟ إن مجرّد الدعاية لا يوصل للهدف.

- لا بكل تأكيد؛ فالدعاية هي المرحلة الأولى وبعدها التسليح، تلك الكميات الهائلة من الأسلحة التي تزوّد بها الدول المحرومة وغيرها، دبابات ومدافع وأسلحة ذريّة تُرسَل إلى إفريقيا وأمريكا الجنوبية حيث يتدرّب الشباب ذكوراً وإناثاً استعداداً لما هو آتٍ.

- كأنني في كابوس ثقيل! كيف علمت كل هذا؟

- لأنني في الصورة كأداة من أدوات الجماعة.

- أنت؟! وكيف كان اتصالكما أنت وهي؟

- إن وراء كل مشروع توافه تدعو إلى العجب!

ثم أطلقت ضحكة وهي تستطرد قائلة: إذا علمت أنها كانت على علاقة حب بجدّي لأدركت الكثير ممّا يقع في هذه الحياة من مصادفات القدر. لقد كان جدّي يقيم في هذه البقعة من العالم وكانت له قلعة على بُعد ميلين.

- وهل كانت له مواهب خاصة؟

- إطلاقاً، لقد كان رجلاً رياضياً وسيماً يحظى بإعجاب النساء، ولذلك فهي تنصّب نفسها وصية عليّ وتعتبرني إحدى أتباعها أو عبيدها، لذا عليّ أن أعمل لأجلها وأصدع بأمرها.

- أهكذا؟

ثم نظر إلى ريناتا واستعاد في ذهنه ما كان في المطار، إذن فهو يعمل الآن مع ريناتا، وهي التي أتت به إلى تلك القلعة. تُرى بأمر مَن اصطحبته إلى ذلك المكان؟ هل هي شارلوت البدينة التي أمرتها بأن تصطحبه إلى بيت العنكبوت؟ لقد كان

معروفاً عنه في الأوساط الدبلوماسية أنه غير رصين، وقد تكون هذه السمعة هي التي حدت بهؤلاء القوم إلى محاولة الانتفاع به في إحدى النواحي، ثم كانت ريناتا هي أداتهم لتنفيذ بُغيتهم مستغلّة نواحي ضعفه. ثم سمعها تقول له: لنعُد أدراجنا.

- ولكنني لم أستفسر منك عن وضعك في العملية كلها.

- أنا من تُؤمر فتطيع.

- ممّن؟

- من المعارضة، ممّن يرتابون في كل ما هو جارٍ وما سيجري من تغيّرات في هذا العالم.

- ريناتا، هلاّ زدتِني إيضاحاً.

- لقد أوضحت.

- مَن فرانز جوزيف؟

- الشاب الذي رأيناه أمس؟

- أهذا اسمه؟

- إنه الاسم الذي يُعرَف به.

- وماذا عن الاسم الآخر؟ أهو سيغفريد الشاب؟

- هل هذا رأيك فيه؟

- نعم، فهو مثال للشباب الطموح، الشباب الآريّ المتفوّق على سائر الأجناس. تُرى ما عمله على وجه التحديد؟ ما عمله زيادة على تقبيل يدِ سيدته؟

- الخطابة، فهو خطيب أُوتي القدرة على التأثير في مستمعيه وامتلاك ناصيتهم ودفعهم حتى إلى الموت.

- أحقاً ما تقولين؟

- هذا ما يؤمن به.

- وما رأيك أنت؟

- قد يكون هذا حقاً؛ فللخطابة تأثير خطير، وهي موهبة تتطلّب سحراً خاصاً وجاذبية قوية. إن لنبرات صوته رنيناً خاصاً تبكي له النساء ويفقدن وعيهن، وسترى هذا بنفسك.

- وماذا عليّ أن أفعل؟ أو ما هو الدور المُعدّ لي؟

- أن تتبع دليلك، ودليلك هو أنا. سآخذ بيدك وسأطلعك على ما لم يخطر لكَ ببال.

- هل يجب أن أوليك ثقتي؟

- هذا متروك لك، إن لك الخيار بين أن توليني ظهرك أو أن تمضي معي قُدماً.

- بقي سؤال يحيّرني: لقد أمرتك شارلوت بأن تذهبي بي لزيارتها، فلماذا؟ ماذا تعرف عنّي؟ وماذا تتوقّع منّي؟

- لا أدري على وجه التحديد؛ فقد تعهد إليك بما يتّفق ونزعتك وميولك.

* * *

-١٢-

غادرا الاثنان القلعة في منتصف النهار مودّعَين مضيفتهما، واستقلاّ السيارة التي عبرت بهما الطرُق الجبلية بعيداً عن القلعة بمسيرة عدّة ساعات إلى معقلٍ بين الجبال حيث تُعقد الاجتماعات وتُقام احتفالات مختلفٍ جماعات الشباب. ريناتا هي التي أتت به إلى هنا، أليست هي دليله المرشِد؟

ومن مقعده فوق الصخور المكشوفة راح يتابع ما يجري أمامه ويصغي إلى ما يقال، ثم بدأ يدرك شيئاً فشيئاً كُنه ما كانت تتحدّث إليه به في الصباح؛ فقد أتت به ليشاهد ذلك الجمع الغفير الذي زاد فيه لهب الحماسة فتدفّق كالموج المتلاطم ليهاجم السفارات والجامعات ويعتدي على رجال الأمن وغيرهم، ويرى بعينيه ويسمع بأذنيه مفهوم تلك العبارة ودلالتها «سيغفريد الشاب».

وكان فرانز جوزيف (إذا كان هذا هو اسمه) يخطب في الجموع المختلفة، وكان لصدى صوته الذي كان طوع أمره وقعه في آذان المستمعين وتأثيره العميق في قلوبهم، وكانت استجابتهم لما يصدر عنه واضحة بيّنة، فكانوا كأفراد الفرقة الموسيقية أمام القائد يتبعون عصاه أينما وجّهتهم. ومع ذلك فلم ينطبع من كلماته شيء في ذهن ستافورد ولم يكُن لأي منها

معناه العميق. وبعد أن فرغ الخطيب من إلقاء خطابه كان الصراخ الصادر من الحناجر وصراخ الفتيات اللاتي أُغمي على بعضهن. يا له من عالَم! عالَم متأجّج بالمشاعر لا يبالي بشيء!

وبلمسةٍ من يدِ دليلته تبعها لينسحب بعيداً عن الحشد المائج، ثم استقلاّ سيارتهما إلى إحدى المدن الجبلية حيث توقّفا أمام فندق حُجزت لهما به غرفتان. وبعد قليل غادرا الفندق سيراً على الأقدام إلى أن اتخذا لهما مجلساً فوق منحدر الجبل، وهناك جلسا في صمت ينظران إلى الوادي بتأمّل عميق. وبعد نحو خمس دقائق قالت ريناتا: ما رأيك فيما شاهدت؟

- إنه مجرّد عرض مُحكَم الإخراج، وتلك المرأة هي التي تموّله وتدفع للمخرج أجره، ولكننا لم نرَ المخرج اليوم، ومَن رأيناه هو النّجم فقط، إنه ليس بأكثر من ممثّل، ممثّل من الدرجة الأولى أُحسن توجيهه و...

فضحكت ريناتا ونهضت واقفة ثم قالت بسعادة وسخرية واضحتين: كنت أعرف ذلك، كنتُ أعرف رأيك مسبقاً! إن لك خبرة واسعة بالحياة. لقد أوتيت القدرة على حُسن تقييم كل شيء وكل شخص، ولا حاجة إلى ذهابك إلى سترانفورد لمشاهدة مسرحيات شكسبير كي تعرف دورك. إن الملوك وعظماء الرجال يجب أن يلحق ببلاطهم مهرّج، مهرج الملك الذي يصارح مليكه بالحق، ويجعل ممّا يقوله الناس ويفعلونه مادة للضحك.

- إذن فهذا هو دوري، أليس كذلك؟ مهرّج البلاط!

- ألم تتبين هذا بنفسك؟ هذا ما نريده، فما نحن بحاجة إليه هو الورق المقوّى، أي التدليس بأجمل معانيه؛ فالناس يُأخذون

بالظواهر فيرون هذا الشيء رائعاً أو شراً أو يرونه بالغ الأهمية، وفي جميع الأحوال لا يكون هذا هو الوصف المنطبق عليه، وعلينا أن نهتدي إلى الوسيلة التي نبيّن بها للشباب المخدوع أن كل هذا باطل الأباطيل. وهذا ما نحن بسبيل القيام به.

- أهذا هو رأيك؟ أن نقوم في نهاية الأمر بقلب الأمور رأساً على عقب؟

- ما من أحد يصغي إلينا. إن علينا أن نقدّم إليهم الدليل، الوقائع والحقائق.

- هل لدينا الكفاية من ذلك؟

- نعم، ما كنت أحمله معي في فرانكفورت وأعتنني على السفر به في أمان إلى إنكلترا.

- لا أفهم شيئاً ممّا تقولين!

- سوف تفهم في الوقت المناسب. إن كل ما علينا أن نفعله الآن هو أن نؤدّي دورنا المحدّد، ونحن الآن مستعدون له؛ فنحن نمجّد الشباب ومنهم أتباع «سيغفريد الشاب» المؤمنون به.

- لك أن تحكمي بذلك على نفسك، أما عنّي فلا، وهذه هي دخيلة نفسي التي لا أظن أن أحداً سيعرف عنها شيئاً.

- بكل تأكيد أوصيك بأن لا تكشف عن خبيئة نفسك.

- لا زلت غير مُدرك لدوري على وجه التحديد.

- إنه دور الساخط التقليديّ، أنتَ لم تُقدّر حق قدرك في

الماضي وقد وجدت في «سيغفريد الشاب» ودعوته ما أعاد لك الأمل في مستقبل باسم لأنك تؤمن به وبأنه سيضعك في المكان المناسب الذي يحقّق أمانيك بعد تغيّر الأحوال في هذا العالم.

- أتلمّحين لي بأنها حركة عالمية؟

- بكل تأكيد، إنها كذلك، فهي حركة عاصفة يُراد بها أن تأتي على كل شيء، وهذا ما يريده الناس في كل مكان. أجل، إنها حركة عالمية يقوم بها الشباب بكل ما فيه من حيوية، فهم لم يؤتوا المعرفة وليس في ماضيهم من التجارب ما يتسلّحون بخبرته، ولكنهم مزوّدون بالنشاط يساندهم المال ويشدّ أزرهم، هم ينظرون إلى مستقبل سُداه العلم ولُحمته اليقين و...

فقاطعها السير ستافورد بقوله: أتمنّى أن أعرف شيئاً!

- ما هو؟

- ما هي وجهتنا بعد ذلك؟

- أمريكا الجنوبية، وربما ذهبنا إلى باكستان أو الهند ونحن في طريقنا، كما يجب أن نذهب إلى الولايات المتحدة؛ ففيها من الأمور ما هو مشوّق حقاً، وبالذات في كاليفورنيا.

* * *

-١٣-

كانوا خمسة أشخاص جالسين في غرفة بباريس. لقد شهدت تلك الغرفة اجتماعات تاريخية من قبل، وإن كان ذلك الاجتماع فريداً في بابه؛ فهو لا يقلّ أهمية عن سابقيه.

كان السيد غروغيان، رئيس الاجتماع، شخصاً قلقاً يبذل أقصى ما في وسعه ليمرّ مرّ الكرام على الأمور معالجاً لها بروح ساخرة كانت له خير عون في الماضي، ولكنها أصبحت غير ذات منفعة في تلك الأيام. وكان السيد فيتالي قد وصل من إيطاليا عن طريق الجوّ منذ ساعة، ولم يكُن يهدأ له بال أو يقرّ له قرار فراح يردّد قائلاً: لقد تجاوزوا كل الحدود! هذا أكثر من أن يخطر على بال.

قال غروغيان: هؤلاء الطلَبة، هذا ما نعاني منه جميعاً.

- لقد بلغ الأمر حدّ الخطورة! إنهم التربة الصالحة للإثارة والضحايا الطيّعة لكل مَن يريد استغلالهم، إنهم ما زالوا صبية صغاراً لم يشبّوا عن الطوق، صبية يزوّدونهم بالأسلحة والقنابل والمتفجّرات، وعددهم في مدينة مثل ميلانو يفوق عدد رجال الشرطة. تُرى ماذا نحن فاعلون؟ وإلى أين نحن مُساقون؟

فزفر السيد غروغيان قائلاً: الفوضى من الأمور الشائعة بين الشباب. هذا هو دأبهم، شباب وعدم شعور بالمسؤولية.

فأردف السيد بواسنيه: الطلَبة، إنهم مصدر المتاعب.

وكان الرجل عضواً في الحكومة الفرنسية التي عانت من الطلَبة الكثير، وكانت عُقدة الطلَبة هي ما يقضّ مضجع السيد بواسنيه، فقال السيد غروغيان متسائلاً: وأقضّت مضاجعنا. ماذا دهى السلطة القضائية؟ إنهم لا يوقعون بالشباب العقوبات الرادعة ولا يأخذونهم بالشدة والصرامة اللازمتين، لذا يجب أن نجهر بالقول ولا نخشى أحداً. أنا أشمّ رائحة المال وإن كنت لا أعرف له مصدراً، توجد أمور تجري في الخفاء يُرَاد بها إفساد شؤون هذا البلد، كل ما تسنّى لي أن أعرفه هو أن تلك الأموال واردة من الخارج.

فقال السيد فيتالي: وهذا هو الحال في إيطاليا. تُرى مَن ذلك الذي يريد إفساد العالَم؟ أية جماعة هذه؟

وعقّب غروغيان بقوله: هذه الظاهرة يجب أن تتوقّف فوراً، يجب أن نعمل على ذلك جادّين غير مدّخرين وسعاً، يجب القضاء على هذه الفوضى قبل أن يستشري أمرها؛ فأنا أعرف أنهم يتلقّون كميات كبيرة من مختلف الأسلحة.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب وأقبل سكرتير السيد غروغيان وعلى وجهه أمارات الانفعال، فقال له السيد غروغيان ممتعضاً: ألم أقُل إنني لا أريد أن يقاطعنا أحد؟

- بلى يا سيدي الرئيس، ولكن الأمر غير عادي.

ثم اقترب من رئيسه وقال هامساً: المارشال هنا، ويلحّ في طلب الإذن بالدخول.

- المارشال؟ أتعني...

ولكنه لم يتمّ عبارته؛ فقد فُتح الباب وأقبل منه شخص معروف للجميع، شخص لم تكُن كلمته هي القانون فحسب، بل كانت فوق القانون في فرنسا لعدّة أعوام مضت، وكانت رؤيته مفاجأة مذهلة لمن ضمّتهم الغرفة. بادرهم المارشال قائلاً: تحيّاتي لكم يا زملائي الأعزاء. لقد أقبلت كي أعاونكم؛ فبلادنا في خطر وعلينا أن نُسرع بالعمل. لقد أتيت لأضع خدماتي تحت أمركم، فالموقف لم يعُد يحتمل الكلام. إن هؤلاء الطلَبة يجتمعون وتندس بينهم جماعات من القتلَة والمجرمين، وقد بعثت في طلب فرقتين من الجيش؛ فهذه الثورة يجب أن تُخمَد فوراً لأنها خطر كبير. ولكنني سأحاول التحدّث إليهم كوالد أولاً. إن الطلَبة ومَن يلوذ بهم هم شباب فرنسا وعُدّة مستقبلها، هذا ما سأحدّثهم به، علاوة على ما سأمنّيهم به من وعود، وسيكون هذا باسمكم وباسم الحكومة.

- ولكنك ستعرّض نفسك للتهلكة، يجب أن...

فخطا المارشال صوب الباب قائلاً: سأذهب إلى هؤلاء الشبّان الثائرين، سأذهب إلى زهرة شباب البلاد لأبصّرهم بواجبهم.

ثم اختفى عن أنظارهم بعظمة، فقال السيد غروغيان: رباه، إنه يعني ما يقول!

وقال السيد فيتالي: إنه يخاطر بحياته! صحيح أنه شخص مقدام ولكن مَن يدري ماذا سيكون موقف الشباب الثائر منه؟ قد يغتالونه!

* * *

-١٤-

في قاعة اجتماعات مجلس الوزراء البريطانية برقم ١٠ داوننغ ستريت كان سيدريك لازنباي، رئيس الوزراء، جالساً على رأس المائدة يتأمّل المجلس المجتمِع وهو ممتعض الوجه متجهّمه، وكان يجد في الانطلاق بمشاعره تسرية له، وهو الأمر الذي لا يتيسّر له خارج قاعة المجلس؛ فقد كان لزاماً عليه أن يبدو بمظهر المتفائل المنشرح الصدر مهمّا يكُن من أمر ما يعترضه من أزمات سياسية وذلك بحكم منصبه الخطير.

وتأمّل السيد سيدرك السيد غوردون شيتويند الذي كان مقطّب الجبين، والسير جورج باكهام البادي القلق الشارد الذهن، كما تنقّل بعينيه بين المارشال الجوي كنوود والأميرال بلانت الذي كان يطرق بإصبعه على المائدة إلى أن يأتي دوره في الكلام، ثم قال: ليس هذا بالأمر الهيّن، وعلينا أن نعترف بذلك؛ فقد خُطفت أربع طائرات لنا في الأسبوع الماضي واتجه الخاطفون بها إلى ميلانو، وهناك أخرجوا المسافرين منها ثم أقلعوا بها إلى إفريقيا حيث كان في انتظارهم بعض الطيارين السود.

فقال لازنباي: أو الحُمر، فالأمر سيّان. قد يكون من الأجدى الاتصال بالروس، وفي الواقع أنا أرى أن القيام بزيارة شخصية على مستوى القمّة...

فقاطعه الأميرال بلانت بقوله: سيدي رئيس الوزراء، من الخير لك أن تلزم مكانك ولا تعود إلى هذه المحاولة؛ فما يجري في بلادنا لا يعنيهم لأنهم لا يتعرّضون لمثله، إن ما يعنيهم هو ما يجري في الصين، فلتبقَ في بلادك لترعى شؤونها.

وهنا قال غوردون شيتويند وهو ينظر ناحية الكولونيل مونرو: أليس من الأفضل أن نستمع إلى تقريري عن حقيقة ما يجري؟

- هل تريدون حقائق؟ ليكُن، إنها حقائق لا يتطرّق الشك إليها، وأعتقد أنكم لا تريدون تفصيلات عمّا يجري هنا بقدر ما تريدون ذلك عن الوضع العالميّ بصفة عامة.

- تماماً.

- حسناً، في فرنسا لا زال المارشال بالمستشفى بعد إصابته برصاصتين في ذراعه، ولا تزال الدوائر السياسية في غاية الانزعاج والقلق، كما استولت فرق الشباب على نواح كثيرة من البلاد حيث تمارس سلطانها.

فقال غوردون شيتويند بفزع: هل تعني أن لديهم أسلحة؟!

- الكثير من الأسلحة، ولست أدري شيئاً عن مصدرها؛ فإنه يوجد أكثر من وجهة نظر حول هذا الموضوع، ويقولون إن شحنات كبيرة من الأسلحة قد شُحنت من السويد إلى غرب إفريقيا.

- وماذا يعنينا من كل هذا؟ فليحصلوا على كل ما يريدون من سلاح في غرب إفريقيا وليقتل بعضهم بعضاً.

فقال السيد لازنباي: توجد حقيقة تستلفت النظر، وهي أن تلك الأسلحة قد أُعيد تصديرها من غرب إفريقيا بعد خمسة أيام من وصولها، ومن هنا يتّضح لنا أنها لم تكُن مرسَلة إلى غرب إفريقيا أصلاً، وأنها قد تكون شُحنت إلى الشرق الأدنى.

- لا أفهم. هل...

فقاطعه السير جورج قائلاً: يبدو أن منظمة مركزية في مكان ما خلف تلك الإمدادات؛ فقد لوحظ أن مختلف الأسلحة تُسلّم إلى قادة فرق الشباب وزعماء حرب العصابات والفوضويين الكبار.

فذُهل سيدرك لازنباي لِما سمع وقال: هل تعني أننا نواجه ما يمكن أن نسميه حرباً على نطاق عالمي؟!

ولأول مرّة تحدّث الرجل الآسيوي الوجه الجالس في آخِر المائدة وهو يبتسم ابتسامته المنغولية قائلاً: هذا ما نجدنا مرغَمين على تصديقه، إن جواسيسنا يخبروننا...

- هلاّ أقلعت عن ملاحظاتك؟ سوف يتولّى المختصون في الأمم المتحدة كل شيء.

فلم تختلج في الوجه الهادئ خالجة بل قال: هذا لن يتّفق مع مبادئنا.

ثم واصل الكولونيل مونرو تلخيص تقريره بصوت مرتفع قائلاً: يوجد قتال دائر في بعض جهات من العالم، في آسيا وإفريقيا وفي نواح أخرى، والقوات المسلّحة لجماعة الشباب هي المسؤولة عن كل تلك الاضطرابات. أنتَ تعرف أن

سام كورتمان أُطلق عليه الرصاص وهو يرتقي درَج السفارة الأمريكية.

– كان من المفروض أن يشترك معنا في هذا الاجتماع ليدلي إلينا بما لديه من آراء عن الموقف.

فقال الكولونيل مونرو: لا أعتقد أن آراءه كانت ستعيننا في كثير أو قليل لأن قدرته محدودة.

فتساءل لازنباي وقد احتدّ صوته قائلاً: تُرى أي يدٍ تحرّك كل هذا؟

– قد تكون صينية أو ألمانية، إن ما نعرفه على وجه التحديد هو أن هذه الحركة ما هي إلا إحياء للروح الفاشيّة بين الشباب، وجدير بالذكر أنهم يطلقون على أنفسهم أسماء مثل «الآريون العظام» و«شباب سيغفريد»، إلى آخِر هذه الأسماء التي لها دلالاتها.

ثم استأذن السكرتير في الدخول قائلاً: العالِم أكشتاين يستأذن في الدخول.

فقال سيدريك لازنباي: يحسُن أن يشترك معنا؛ فقد نسمع منه ما يوضّح لنا بعض الأمور وقد نعرف منه آخِر ما توصّلوا إليه في أبحاث السلاح.

فقال المارشال الجوي: قد نستفيد من أي سلاح سرّي جديد.

كان العالِم أكتشاين رجلاً دميماً لا يبدو عليه أنه قمّة العلماء البريطانيين، وكان خجولاً عصبيّ الحركات، وقد احتلّ المقعد

الذي خُصّص له وراح ينظر إلى ما حوله قبل أن يبادره السير جورج باكهام قائلاً: إن رؤساء جميع الخدمات موجودون هنا، ونريد أن نسمع منك ما يمكن أن نقوم به.

وخيّم الصمت على القاعة، ثم أردف سيدريك لازنباي يستحثه قائلاً: يقولون إنك قمت ببعض الاكتشافات الهامة مؤخّراً، فهل هذا صحيح؟

فخرج العالِم أكشتاين عن صمته قائلاً: نعم، لقد هذا حدث بالفعل؛ فقد توصلنا إلى بعض الأسلحة الكيميائية الخطيرة وهي تحت أمركم، إنها شديدة الفتك.

- ليس هذا ما نريد على وجه التحديد.

- أنا أؤكّد واقع فاعليتها المرعب، أما ما عدا هذا فمتروك لكم.

ثم تابع العالِم الكبير سرد تفصيلات نتائج استعمال الأسلحة البيولوجية الفتّاكة التي تفوق سائر ما عداها من أسلحة الدمار موضّحاً مدى خطورتها. وأخيراً قال له السيد لازنباي: شكراً لك أيها العالِم أكشتاين.

رأى أكشتاين في هذا الشكر إذناً له بالانصراف فابتسم للجميع مغادراً القاعة، وما إن أوصد الباب وراءه حتى زفر رئيس الوزراء بحُرقة، وتساءل غوردون شيتويند قائلاً: تُرى هل يوجد مزيد من العلماء في الانتظار؟

فقال لازنباي: بايكواي هنا ومعه صورة أو رسم أو خريطة يريد إطلاعنا عليها.

- وماذا تكون؟

- لا أدري، كما أقبل هورشام أيضاً.

فقال شيتويند: قد يكون لديه جديد.

وأقبل الكولونيل بايكواي، وكان يحمل بمعاونة هورشام خريطة مطويّة فتحها أمام المجتمعين بحيث يتسنّى للجميع إلقاء نظرة إليها، ثم قال بايكواي موضّحاً: قد يعطيكم هذا الرسم غير الدقيق فكرة.

ثم نظر إلى هورشام واستطرد قائلاً: هورشام، يحسُن أن تتولّى محاضرتهم؛ فأنت ملمّ بالفكرة العامة.

فقال هورشام: أنا لا أعرف أكثر ممّا قيل لي، فهذا رسم هندسي لجماعة السيطرة على العالم.

- بواسطة مَن؟

- بواسطة هذه الجماعة وتشكيلاتها التي تسيطر على مصادر القوة في العالم.

- وإلامَ ترمز هذه الحروف الهجائية؟

- قد ترمز إلى شخص أو جماعة، إنها دوائر تغطّي الكرة الأرضية، بمعنى أنه يوجد شخص أو جماعة تتولى أمر التسليح، وهو ما يُرمَز إليه بحرف الألف، وأما حرف الدال فيرمز إلى المخدرات، وهم لا يبغون بها ربحاً بقدر ما يبغون بها التأثير على الأتباع واتخاذها وسيلة للقضاء على ضِعاف النفوس من الشباب ممّن يظلّون عبيداً لهم، وحرف التاء يعني التمويل، وأهم شخصية مموّلة للجماعة هي شارلوت كروب التي تتحكّم

في ثروات طائلة، ويرمز السين إلى العلم وكل ما هو جديد في الحرب البيولوجية، وتنتشر فروع تلك الجماعة في الشرق الأدنى وآسيا وأوروبا وأمريكا الجنوبية، وذلك تبعاً لاختصاص كل من تلك المناطق في التوزيع والتدريب والنشاط. ونحن نطلق على هذا الرسم الهندسي اسم «الحلقة»، وقد توصّلنا إلى التعرّف على زعماء هذه الحلقة بأسمائهم الحقيقية أو الحركيّة، بالإضافة إلى التعرّف على مراكز قوّتهم بقدر الإمكان حسب القائمة التالية:

ش. شارلوت العجوز، بافاريا، التمويل.

أ. أريك أولافسون، السويد، التسليح.

د. ديمتروبوس، أزمير، المخدرات.

س. العالِم سارولينسكي، كولورادو (أمريكا)، كيميائي.

أما حرف الجيم فهو يرمز إلى امرأة يُطلَق عليها اسم رمزي هو «جوانيتا»، ويُقال عنها إنها امرأة خطيرة ولا يُعرف شيء عن اسمها الحقيقي، ومن الطبيعي أن تكون مهمّتها نضالية.

* * *

-١٥-

جازفت العمة ماتيلدا بقولها: لقد خُيل إليّ أنني بحاجة إلى الاستشفاء.

فقال الطبيب دونالدسون وقد بدت على وجهه أمارات الحيرة: الاستشفاء؟

فاستطردت السيدة ماتيلدا تقول موضّحة: هذا ما كنا نطلقه على رحلاتنا الاستشفائية في الماضي في مارينباد وكارلسباد وبادن، إلى آخِر هذه الأسماء. وقد قرأت بالأمس فقط عن ذلك المكان الجديد في الصحف، إنه جديد عصري حديث، ويقولون إن به كل ما هو مستحدث مبتكَر.

- أظن أنني أعرف ذلك المكان لأنهم يعلنون عنه كثيراً.

- إن مَن هم في مثل سنّي يحبون رؤية كل جديد، فما رأيك؟

فنظر إليها الطبيب دونالدسون الذي لم يتجاوز الأربعين من عمره، والذي كان في عجَب ممّا تزعمه تلك السيدة التي قاربت التسعين! وأخيراً تغلّبت عليه اعتبارات مهنته فقال: قد تكون فكرة صائبة. صحيح أن السفر متعِب ولكنه أقلّ تعباً في أيامنا هذه بفضل الطيران.

- قد يكون أسرع فقط. هل يمكن أن يحصل الإنسان على مقعد متحرّك في المطارات؟

فقال الطبيب: بكل تأكيد، هذه فكرة رائعة إذا ما وعدتِني بأن لا تُجهدي نفسك.

- أُدرك ما تعني، وأعدك بأن أدبّر لنفسي كل وسائل الراحة حيثما ذهبت.

- ستصطحبين الآنسة ليذيران معك، أليس كذلك؟

- أتعني آمي؟ بلى؛ فأنا لا أستطيع الابتعاد عنها. وأخيراً، هل توافق؟

فقال الطبيب: أرجو لك رحلة طيبة.

فقالت السيدة ماتيلدا: شكراً لرقّتك وتشجيعك. إن مجرّد التغيير قد يفيدني لأنه لا يوجد ما يمكن أن أستشفي منه سوى الشيخوخة والسأم فقط.

- كل ما أرجوه هو أن لا ترهقي نفسك.

ثم استدعت السيدة ماتيلدا آمي التي عهدت إليها بأن تأتيها بخريطة من المكتبة لتتعرّف بها على موقع من بافاريا من البلاد التي تحيط بها، فأسرعت آمي حاملة إليها الخريطة ونظّارتها المكبّرة.

❋ ❋ ❋

تلفّتت السيدة ماتيلدا حولها وراحت تتأمّل الغرفة الأنيقة الفاخرة راضية عن حُسن اختيارها لأنها جمعت كل أسباب الراحة والدّعة والتسلية القديمة والحديثة أيضاً.

وبعد قليل سمعت طرْقاً خفيفاً ثم فُتح الباب ليطلّ منه وجه آمي المخلِصة مستأذنة في الدخول، وأقبلت آمي قائلة بصوت هادئ وديع: أرجو أن تكوني قد استمتعت بنوم هادئ.

- أجل. هل حصلت على تلك القائمة؟

فمدّت آمي يدها إلى سيدتها بما سألتها عنه، وبعد أن ألقت السيدة ماتيلدا نظرة إلى القائمة قالت: يا لها من قائمة مقيتة! وما هو مذاق تلك المياه؟

- ليس بالجيد.

- هذا ما كنت أتوقّعه. عودي إليّ بعد نصف ساعة لأنه لديّ رسالة أريد أن أبعث بها.

ثم نهضت السيدة إلى المكتب الصغير، وبعد أن أطرقت مستعرضة ما هي بسبيل تحريره أمسكت بالقلم ودوّنت ما استقرّ عزمها عليه ثم تمتمت قائلة: لعله يُنتج أثره.

فقالت آمي: معذرة سيدة ماتيلدا، ماذا قلت؟

- كنت أكتب لصديقتي القديمة التي تحدثت إليك عنها.

- صديقتك التي مضى على آخِر لقاء بينكما ستون عاماً؟

فأومأت السيدة ماتيلدا برأسها إيجاباً، فاستطردت آمي تقول معتذرة: إنها فترة طويلة! لم تعُد ذاكرة الناس تعي ما طال عليه الأمد. أرجو أن لا تكون قد نسيت ما كان بينكما.

- إنها لن تنسى بكل تأكيد؛ فذكريات الصبا لا تُنسى وإنما تُطبع في الذاكرة، وأنا واثقة من أنها ستذكر كل شيء عنّي وعن

لوزان. ابعثي بهذا الخطاب بالبريد.

ثم عادت إلى فراشها بعد أن التقطت نسخة من تقويم جونا، السجل الرسمي لأسماء وتواريخ الأُسر الأرستقراطية العريقة في أوروبا، وراحت تراجع بعض فقراته التي تتضمّن معلومات عن مختلف الأُسر وما حلّ بها.

لم تكُن تتوقّع أن تجد شيئاً عن الشخصية التي تجول بخاطرها بالذات، ولكنها قرأت عن سيدة أقامت في أنحاء من العالَم ثم جاءت لتقيم في قلعة كانت ملكاً لأسلافها النبلاء، وحظيت باحترام الدوائر المحيطة بها بسبب ثروتها الطائلة.

* * *

بعد مسيرة خمسة عشر ميلاً توقّفت بها السيارة أمام القلعة التي اقتِيدت فيها إلى إحدى قاعات الاستقبال الفسيحة، وكانت السيدة ماتيلدا كليكهيتون قد تأنّقت في ارتداء ثيابها ضاربة بملاحظات آمي عُرض الحائط، وقد راعت في ثوبها أن يكون أرستقراطيّ الطابع، وإن لم يدلّ على غنى ملموس. ولم تُفاجأ ماتيلدا بما وقعت عليه عيناها؛ فقد حدّثها ستافورد بالكثير عمّا رآه، وعن تلك المرأة التي في ضخامة الحوت وقد جلست في مقعدها بتلك الغرفة المزدانة بلوحات تساوي ثروة طائلة.

نهضت سيدة القلعة عن مقعدها الشبيه بالعرش لتستقبل الضيفة قائلة: ماتيلدا!

- شارلوت!

- بعد كل هذه الأعوام، يا للعجب!

ثم تبادلتا عبارات الترحيب والسرور باللقاء. وعادت السيدة ماتيلدا بذاكرتها إلى الماضي لتستعيد منه أن شارلوت كانت فتاة بغيضة وأنها لم تعرف قطّ ما إذا كانت شارلوت قد أحبتها أم لا! ثم استعادتا معاً ذكريات الماضي البعيد وما كانتا تفعلانه مع زميلات الدراسة وما تمّ من زيجات البعض منهن، وحمل الخدم أقداح القهوة وصحاف الفطائر والكعك، فانبرت السيدة ماتيلدا تقول: لا أستطيع تناول شيء من هذا لأن أوامر طبيبي قاطعة، وقد أشار عليّ بالتزام قواعد الاستشفاء، غير أنه يمكن اعتبار يومنا هذا يوم عيد، أليس كذلك؟ عيد تجديد الشباب. لقد علمت من ابن أخي الأصغر الذي قام بزيارتك منذ فترة غير بعيدة... لقد نسيت اسم مَن جاءت به إلى هنا، إن اسمها يبدأ بحرف الزاي.

- الكونتيسة زركوفسكي.

- أجل، هذا هو اسمها، إنها امرأة ساحرة. لقد سُرّ كثيراً بهذه الزيارة، وقد أحدث كل ما شاهده أثراً عميقاً في نفسه، وكان في مقدّمة ذلك كله ذلك الجمع الرائع من الشباب. إنهم يقدسونك. يا لها من حياة!

- أتذكر ابن أخيك هذا، أليس من السلك الدبلوماسي؟

فقالت السيدة ماتيلدا: بلى، لقد كان حظّه عاثراً؛ فهم لا يقدّرونه حق قدره. لقد تغيّرت الحياة ولم تعُد الأمور تجري كما كانت تجري من قبل، إنه ليس موضع ثقتهم.

- أتعنين أنه ليس على وفاق معهم، مع أولي الأمر؟

- إن لستافورد آراء خاصة ونظريات في الحياة، فهو غير

راضٍ عن أساليب مَن بيدهم مقاليد الأمور. لقد بدا لي أنه تأثّر إلى حدٍ كبير بما حدّثتِه به أو أطلعتِه عليه، إنه معجَب بمبادئك وما تهدفين إليه من إصلاح!

- يجب أن يوجد جنس سام، وقد كان أدولف هتلر على حق، ولا شك في أنه كان زعيماً موهوباً.

- نحن بحاجة إلى زعامة قوية، بشرط أن لا تتورط في الأخطاء.

- إن آمالنا معقودة على الشباب؛ فالشباب هم القوة، وهم القلوب الجريئة القوية والآراء الجديدة الدافعة لعجلة الحياة، وإلى جانب ذلك هم المستقبل، ونحن نعدّ العدّة لمثل هذا المستقبل ونعمل على تزويد الشباب بكل الإمكانيات، وفي عالَم مثل هذا ستُتَاح الفرصة لمن هم على شاكلة ابن أخيك؛ فشعارنا هو «النصر للشباب».

لم يكُن في مقدور السيدة ماتيلدا سوى أن تصغي وتومئ برأسها مجاراة لصديقتها فيما تقول. وقد قالت لها آمي وهما في طريقهما إلى جناحهما بالمصحّة: أرجو أن تكوني قد استمتعت بهذا اللقاء.

فعقّبت السيدة ماتيلدا كليكهيتون بقولها: لو قُدّر لك أن تستمعي إلى ما استمعت إليه من هراء بإصغاء تام وموافقة ومجاراة لصديقتي لتملّكك العجب ولما صدّقت أذنيك!

* * *

-١٦-

قال الكولونيل بايكواي وهو يزيل رماد لفافة التبغ عن معطفه: إن الأنباء الواردة من فرنسا في غاية السوء، هذا ما قاله تشرشل صراحة في الحرب الماضية. لقد كان لصراحة الرجل وشجاعته تأثيرها العميق، وعلى غرار هذه المكاشفة أُعيدُ ترديد هذا القول الآن، إن الأنباء الواردة من فرنسا بالغة السوء.

وبعد أن سعل وأزال ما استجدّ من رماد لفافة التبغ المتساقط فوق معطفه استطرد قائلاً: وأخبار إيطاليا سيئة جداً هي الأخرى، ولا أستبعد أن تكون أخبار روسيا كذلك لو تيسّر لنا أن نعرف عنها شيئاً؛ فالطلَبة لا يقلّون نشاطاً فيها عن غيرها، والأخبار غير مطمئنة في أمريكا الجنوبية أيضاً، ففيها جماعة تُطلِق على نفسها اسم «اتحاد الشباب الذهبي» أو شيئاً من هذا القبيل، ولتلك الجماعة جيش أيضاً، جيش مسلّح تسليحاً تاماً وله قيادته، وتتخذ تلك الجماعة الأغنيات الشبابية والأناشيد الموجّهة حيلة لاجتذاب الشباب.

وصمت بُرهة ثم استطرد حديثه قائلاً: لقد سمعت أن لتلك الجماعة خطّ نشاط في الدول المتحضّرة يبدأ من هنا، والمظاهرات التي تنتشر في البلاد من حين لآخر خير دليل على ذلك.

وتوقّف مرّة ثانية لينظر إلى الرجل الجالس أمامه ثم استطرد قائلاً: إنه لأمر مؤسف أن تبلغ الأخبار إلى هذا الحدّ من السوء! إن الفوضى تستشري في العالَم قاطبة، ونحن في طريقنا إلى ذروتها.

- ألا يمكن اتخاذ خطوات إزاء هذه الظاهرة الخطيرة؟

- ليس بهذه السهولة التي تبدو لك، والقنابل المسيّلة للدموع تضع حداً مؤقتاً لمثل هذه الاضطرابات، أما ما عدا ذلك من أسلحة فتّاكة فلا يمكن الإقدام على استعمالها. ومهما يكُن من أمر فإنه يلوح لي أن لديك أخباراً جديدة من ألمانيا، من الهرّ شبايس شخصياً، أليس كذلك؟

- وكيف عرفت؟! من المفروض أن...

- نحن نحيط علماً بكل شيء هنا؛ فهذا عملنا. لقد أحضر شبايس معه طبيباً كما علمت.

- أجل، العالِم ريخارد، إنه قمّة بين الأطبّاء النفسانيين، وسوف يُعهَد إليه بفحص حالات معيّنة.

فعقّب جورج باكهام قائلاً: يجب أن نضع في حسابنا اتجاهات الفكر الحديث، أعني أنني أرجو... في الحقيقة أنا أجد صعوبة في التعبير.

فقال له الكولونيل بايكواي: حقاً إنه لمن المزعج أن يجد الإنسان صعوبة في التعبير عمّا يدور بخلده!

وفي تلك اللحظة سُمع رنين الهاتف، فتناول الكولونيل السمّاعة وأصغى، ثم مدّ يده بالسمّاعة إلى السير جورج الذي

تحدّث قائلاً: نعم، أجل، أجل، موافق. لا، وزارة الداخلية لا تُعنى بصفة خاصة.... حسناً، أعتقد أنه من الأفضل أن...

وتلفّت السير جورج حوله حذراً، فقال له الكولونيل بايكواي: أنت في أمان هنا.

فتابع السير جورج يصوت هامس قائلاً: لتكن كلمة السرّ هي «الدانوب الأزرق». نعم، نعم، سأصطحب بايكواي معي. لا تنسَ أن اجتماعنا سري وله صفة خاصة.

فقال بايكواي: إذن فمن الأفضل أن لا نستقل سيارتي لأنها معروفة للجميع.

- سوف يأتي هنري هورشام بسيارته الفولكس.

- عظيم جداً.

* * *

-١٧-

كان هريك شابيس بادي القلق، ولم يحاول أن يخفي تلك الحقيقة عن الرجال الخمسة الذين اجتمعوا لمناقشة الموقف الخطير، ولكنه كان يحمل في جعبته ما يعيد الثقة إلى القلوب، تطبيقاً لأسلوبه في معالجة الحياة السياسية الشاقة في ألمانيا.

كان رجلاً شديد المراس متّزن التفكير يوحي بالثقة إلى كل من يتّصل به، ومع ذلك فقد كان يحرص على أن لا يوحي لمن يتّصل به بأنه رجل متوقّد الذكاء، وهذه الصفة بالذات تُضاعف من الثقة به. إن معظم رجال السياسية في العالَم مسؤولون عمّا تتعرّض له الدول من أزمات، على الرغم ممّا يتحدّث به الناس عن ذكائهم وصفاتهم الذهنية الممتازة.

وقد بدأ المستشار الألماني حديثه بقوله: إن زيارتي ليس لها طابع رسمي بصورة أو بأخرى.

- هذا أمر مفهوم.

- لقد تجمّع لديّ من المعلومات ما رأيت من الضروريّ أن أُشرككم معي في الإحاطة به، وهي معلومات تُلقي ضوءاً على بعض الأحداث التي سبّبت لنا الحيرة والأسى معاً، ولكن اسمحوا لي بأن أقدّم لكم الدكتور ريخارد أولاً.

وتمّ التعارف بين الحاضرين الذين رأوا في ريخارد رجلاً ترتاح العين لرؤيته، ثم استطرد الهرّ شبايس قائلاً: إن الدكتور ريخارد يتولى معالجة الحالات العقلية في مؤسسة كبيرة على مقربة من كارلزوره، ويبلغ عدد مرضاه نحو ستمئة. ومن المفروض أن تلك الحالات مختلفة متباينة، أليس كذلك؟

- بلى، لديّ أكثر من نوع من تلك الحالات، وإن كنت أهتمّ اهتماماً خاصاً بنوع معيّن منها.

ثم راح يواصل حديثه بالألمانية. وبعد أن فرغ من إيضاحه عقّب الهر شبايس على حديثه قائلاً: يقول الدكتور ريخارد إن هذا المرض العقلي المعيّن يمكن تسميته جنون العظمة؛ إذ يعتقد المرء تحت تأثيره أنه شخص آخر، شخص أكثر أهميّة من حقيقته، شخص يتوهّم أنه مضطهَد.

فقال الطبيب ريخارد معترضاً: لا، ليس بهذا المعنى على وجه التحديد، وإنما يمكن القول بأنه شخص يعتقد أنه مغبون وأنه أعلى قدراً ممّا هو في الواقع، وأنه يجب أن يكون...

- سادتي، لعلكم فهمتهم من تعقيبي ومن إيضاح الطبيب ريخارد حقيقة هذا المرض. كم يبلغ عدد المرضى في عيادتك أيها الطبيب ريخارد؟

- لقد بلغ الثمانمئة في الفترة التي أتحدّث عنها.

- ثمانمئة؟ وكل منهم يرى في نفسه أنه عظيم؟

فقال لازنباي معقّباً: هذا حديث مثير!

قال الطبيب: منهم مَن يعتقد بأنه أدولف هتلر! ويبلغ عدد

هؤلاء خمسة وعشرين بينهم خمسة عشر يعتقدون بأنهم نابليون، إلى آخِر قائمة الشخصيات التاريخية مثل موسوليني ويوليوس قيصر وغيرهما، وهي حالات لا تبلغ من الأهمية مثل هذه الحالة التي سأعرضها عليكم.

واصل الهرّ شبايس الترجمة، واستطرد الطبيب ريخارد حديثه قائلاً: حدث أن جاء لزيارتي أحد موظفي الحكومة في يوم ما، وكان من الشخصيات التي يُشَار إليها بالبنان حينذاك، وقد كان ذلك في أثناء الحرب، لا تنسوا ذلك. ولنُطلق عليه اسم مارترب مؤقتاً، وسوف تدركون مَن هو. وقد اصطحب الموظف معه رئيسه الذي هو أدولف هتلر شخصياً.

وبعد أن أطرق الطبيب قليلاً أكمل حديثه قائلاً: وكانت زيارته شرفاً كبيراً لنا، وقد أثنى عليّ وعلى جهودي وقال لي إنه توجد بعض المتاعب في الجيش، وإنه يوجد من بين أفراده مَن يرى في نفسه أنه نابليون، وآخرون يعتقدون أنهم من مارشالاته فيُصدرون الأوامر العسكرية ويسببون الكثير من المتاعب. وكان يسعدني أن أزوّده بما شاء من معلومات قد يَفيد منها، غير أن مارترب الذي كان يرافقه قال إن هذا ليس ضرورياً، وقال هتلر إنه من الأفضل إيفاد أطباء اختصاصيين في أعصاب المخّ لفحص تلك الحالات، كما أبدى رغبته في القيام بجولة في المصحّة. وبدا لي أنه كان مهتماً بما يشاهد وأنه وجد فيما رآه ما رفّه عنه، وكان يستفسر منّي عن بعض الأمور. ثم أخبره مارترب بأنه من بين المرضى مَن يرى في نفسه أنه أدولف هتلر، ولما زدته إيضاحاً عن دوافع تلك الحالات المرَضية رأيته راضياً عن تشخيصي الطبي وأبدى رغبته في الاجتماع ببعضهم، فقال

مارترب إن الفوهرر يريد الاجتماع بهم في غير حضوري فغادرت الغرفة. وبعد سبع دقائق من الاجتماع بمن دعوناهم من هؤلاء المرضى أسرع هتلر ورفيقه بالانصراف.

وبعد فترة صمت خيّم فيها السكون على القاعة قال الكولونيل بايكواي متسائلاً: وهل حدث بعد ذلك ما هو جدير بالذكر؟

فقال الطبيب: لقد حدث أن إحساس أحد المرضى بعظمة هتلر أصبح غير عادي، وكان بين ذلك الرجل وأدولف هتلر شبه غريب! مما ضاعفَ من النزعة المرَضية المتسلّطة عليه. ولاحظتُ أنه أصبح أكثر تمسكاً بأنه الفوهرر لحماً ودماً وأنه يجب أن يتوجّه إلى برلين فوراً ليرأس مجلساً لأركان الحرب وكبار القادة، كما لاحظت بعض التغيير في شخصية المريض عن ذي قبل، وقد طبت خاطراً حينما أقبلت أسرته بعد يومين للعودة به إلى منزله حيث قرّروا أنهم سوف يتولّون علاجه هناك، وقد وافقت على طلبهم؛ إذ كان في صحبتهم طبيب أخذ على عاقته الإشراف على علاجه.

- يبدو أن للهرّ شبايس وجهة نظر.

فقال الهرّ شبايس موضّحاً: هذه ليست بوجهة نظر وإنما هي حقيقة واقعة، وقد عمد الروس إلى إخفائها كما عمدنا، ولكنه يوجد أكثر من دليل على قيامها، وهذه الحقيقة هي أن الفوهرر هتلر قد تخلّف في المصحة بمحض إرادته في ذلك اليوم، وأن الرجل الذي يشبه هتلر الحقيقي غادرها برفقة مارترب، وبالتالي تكون جثة ذلك المريض هي التي عُثر عليها فيما بعد في المخبأ، ولستُ أجد داعياً إلى الدخول فيما عدا هذا من تفصيلات.

فقال لازنباي: يجب أن نعرف الحقيقة.

- أما الفوهرر الحقيقي فقد تمّ تهريبه إلى الأرجنتين حيث أقام بضعة أعوام، وكان له ولد من فتاة آرية جميلة من أسرة عريقة، والبعض يزعم أنها إنكليزية، وهناك ساءت حالة هتلر العقلية إلى أن مات مجنوناً معتقداً بأنه يقود جيوشه في الميدان، وكانت تلك هي الخطة الوحيدة التي يسّرت له سبيل الهرب من ألمانيا والتي تمّت بموافقته.

- ومع ذلك فلم يتسرّب شيء ينمّ عمّا حدث!

- كانت توجد إشاعات، مجرّد إشاعات كما هي العادة، كتلك التي تردّدت حول قتل إحدى كريمات قيصر روسيا.

فقال جورج باكهام: ولكن هذا كان مجرّد ادّعاء باطل.

- هذا في اعتقاد البعض فقط، ولكن كان يوجد آخرون يؤمنون بصحته، فأي الجانبين كان على حق؟! إنها الإشاعات! وقد سمعنا الكثير عن أن هتلر حياً يُرزق، وعلى الرغم ممّا قيل عن أن الجثة التي وُجدت بالمخبأ كانت لهتلر فإنه لم يقُم دليل على صدق هذا القول.

- أنفهم من هذا أنك تؤيّد هذه القصّة يا دكتور ريخارد؟

- لقد حدثتكم بما حدث. كان مارترب هو مَن قدِم لزيارة مصحّتي، وكان مارترب مَن أقبل وبصحبته الفوهرر، وكان مارترب مَن عامله على أنه الزعيم، وكان مَن يتحدّث إليه بما يجب من احترام وتوقير، أما أنا فقد قُدّر لي أن أعاشر مئات ممّن يدّعون أنهم هتلر ونابليون ويوليوس قيصر. وجدير بالذكر أنه

لم يسبق لي أن التقيت بهتلر أو حظيت بالاجتماع به شخصياً، ثم كانت تلك الزيارة التي أبدى فيها هتلر رغبته في الاجتماع على انفراد ببعض مَن حلا لهم أن يتقمّصون شخصيته، وقد حقّقت له رغبته أو صدعت بما أمرني به، وجدير بالذكر أيضاً أن الكثرة ممّن كان يُخيّل إليهم أنهم أدولف هتلر كانوا يصرّون على محاكاته في كل شيء بما في ذلك ثيابه، كما أنه كان يوجد ذلك الرجل المريض الذي يشبهه إلى حد بعيد، وما أظن أن بي حاجة إلى إعادة سرد ما حدث في ذلك اليوم، وغني عن البيان أن البديل ما كان له سوى أن يرحّب بهذه الفرصة التي واتته ليحتلّ مكان هتلر الحقيقي بناء على تلك العقيدة المتأصّلة في نفسه. هذا هو ما حدث وهذا هو تصويري الحقيقي له.

فقال وزير الداخلية معقّباً: هذه قصة غريبة، أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة!

فأردف الهرّ شبايس قائلاً: إن الغرائب كثيراً ما تحدث في الحياة والتاريخ.

- ألم يساور الشكّ أحداً فيما حدث؟

- لقد كان التخطيط محكَماً ممّا لم يدَع ريبة أو شكاً، كما أن مَن قاموا على وضع الخطّة قد حرصوا على كتمانها بحيث ضمّنوها بالقضاء على بعض مَن اشتركوا في تنفيذها خشية تسرّب شيء منها. إن الموت هو أيسر سبيل لإطباق شفتَي مَن يحتفظ بسرّ خطير، ولم يكُن القائمون على مثل هذه الأمور في ألمانيا ليتحرّجوا عن فعل شيء من هذا القبيل وهم من كانت لهم خبرة بتدبير أمر المعقّبات والعواقب. وعلى الرغم من هذا الحرص فقد

ثبت لدينا من بعض الوثائق والأدلّة أن الخطة نُفِّذت على الوجه الذي سبق إيضاحه، وأن هتلر قد وصل إلى أمريكا الجنوبية حيث عقد زواجه وأنجب مولوداً ثم وشمه في قدمه بالصليب المعقوف. وقد التقيت بعملاء لنا من الموثوق بهم شاهدوا ذلك الوشم في قدم الطفل المذكور. وهناك نشأ ذلك الطفل وأُعدّ للمستقبل، ومن هنا ثبتت فكرة الشباب الجديد. إنها فكرة أعمّ وأشمل، فكرة تضمّ شباب مختلف الدول، وتستهدف القضاء على كل قديم مستهينة بكل المقدّسات في سبيل بلوغ غايتها بما في ذلك الحياة الإنسانية، ولهذا الشباب أو لتلك الجماعة زعيمهم الذي تجري في عروقه دماء أبيه وإن لم يشبهه لأنه أقرب شبهاً بأمه، فهو صبي ذهبيّ الشعر مقبول الشكل، وهو مَن يطلقون عليه اسم «سيغفريد الشاب»، وقد حرصوا على تنشئته بحيث يمكن أن يصبح زعيماً لهم يقودهم إلى أرضهم الموعودة.

فعقّب السيد لازنباي قائلاً: هذا هراء! يجب أن يُقضى عليه قبل أن يستفحل أمره.

فأردف الهرّ شبايس قائلاً: إنهم لا يدركون من أمرهم شيئاً؛ فهم لا يعرفون إلى أين هم مساقون، إنهم مندفعون وقد أعماهم إيمانهم عن مصيرهم. إنهم شباب يتفجر حماسة ولا يكاد يتبيّن موضع أقدامه. لقد لُقّنوا مبادئ هتلر وأُشرِبوا قسوته مستهينين بكل شيء في سبيل المضيّ قُدماً تحت لواء «سيغفريد الشاب». هذا ما عرفناه عنهم في بلادنا، فماذا عنكم أنتم؟

- لا يعلم منا بهذا سوى أربعة أو خمسة على الأرجح.

- إنهم يعلمون بهذه الظاهرة في روسيا وكذلك في أمريكا، فهم يعرفون أنه يوجد أتباع للبطل «سيغفريد الشاب» الذي يمثل

الفايكنغ وأبطال الأساطير الإسكندنافية، ولكننا يجب أن لا نغفل أمر هؤلاء الذين يدفعون بهذه العجلة إلى الأمام من الرجال ذوي العقول الجبارة، وكذلك من كبار الأغنياء ورجال الصناعة وغيرهم من العلماء، وهؤلاء جميعاً يشتركون في السيطرة على تلك الجماعة وعلى مصادر القوة منها، ويُقال إن سطوتهم بلغت حداً جعل من هؤلاء الشباب عبيداً لهم. لقد كانت وسيلتهم في ذلك المخدّرات التي تجعل مَن يتعاطاها عبداً خاضعاً لها! إن المخدرات لا تدانيها رذيلة في عواقبها السيئة على المرء؛ فهي تنتهي به إلى إهدار آدميته!

فعقّب وزير الداخلية قائلاً: وهل سنقف أمام هذه الظاهرة الخطيرة مكتوفي الأيدي؟ أليس أولى بنا أن نتّخذ من الإجراءات الصارمة ما يضع حداً لها و...

فقاطعه رئيس الوزراء قائلاً: لا زلت أعتقد أن الوسيلة إلى معالجة هذه الظاهرة هي تعاوننا مع الروس لوضع أُسس مقاومتها ودفع شرّها، لا سيما وأنهم يحيطون علماً بهذه الحقائق.

فقال شبايس: أجل، إنهم يحيطون علماً بما فيه الكفاية، ولكن هل سيعترفون بذلك؟ إن سياستهم يكتنفها الغموض دائماً، أضف إلى ذلك متاعبهم مع الصين، ثم إنهم قد لا يتوقّعون من هذه الحركة ما نتوقّعه نحن من شر مستطير.

فقال لازنباي: أظن أن عليّ أن أطير بنفسي إلى روسيا.

وبصوت هادئ تحدّث السير ألتامونت قائلاً: سيدريك، نحن بحاجة ماسّة إليك هنا فأنتَ رئيس حكومتنا، ولدينا من الموثوق بهم كثيرون يمكن إيفادهم إلى مثل هذه المهمّة.

فقال السير جورج باكهام متسائلاً: ومَن تراه يصلح لمثل هذه المهام؟ لعل هورشام خير مَن يحدّثنا في هذا الشأن.

فأجاب هنري هورشام بهدوء قائلاً: لدينا نخبة ممتازة من العملاء تأتيك بما لم يكُن يطرأ لك على بال من معلومات، فما أدلى به الهرّ شبايس من معلومات لم يحصل عليه إلا عن طريق عملاء له.

فقال لازنباي بلهجة قاطعة: دعونا من هذا الحديث عن المعلومات وعن جديّتها من عدمها، ولننتقل إلى الحديث عن كيفية مواجهة هذه الأزمة العالمية. يجب أن تُتّخذ القرارات في اجتماعات للقمّة لإيجاد مخرج منها.

- سيدي، يجب أن نضع نُصب أعيننا أن تلك الحركة ليست كحركات الطلَبة العادية، إن جيش الشباب يقف من ورائه جيش من العلماء والبيولوجيين والكيمائيين، أضف إلى ذلك مَن يمدّونه بالسلاح والمال والمخدرات التي تُفقد أفراده الإرادة، إن وراء الأكمة ما وراءها.

فتلفّت سيدريك لازنباي يميناً ويساراً إلى ممثّلي القوات البرية والبحرية والجوية ثم قال: لقد بلغ الموقف حد الهاوية، شيتويند، مونرو، بلانت.

ولفرط دهشة لازنباي كان الأميرال بلانت هو الوحيد الذي استجاب له قائلاً: لست أدري ما هو وضع الأميرالية من ذلك؟ وخير ما أشير به هو استعراض الموقف بدقّة تامة ومراجعة المعلومات جيداً قبل اتخاذ قرار.

* * *

-١٨-

انفضّ الاجتماع على ذلك، واستقرّ رأي المجتمعين على إعادة النظر بصفة حاسمة فيما يُتّخذ من إجراءات، واتّجه كل من المستشار الألماني ورئيس الوزراء والسير جورج باكهام وغوردون شيتويند والدكتور ريخارد إلى داوننغ ستريت لتناول طعام الغداء، أما الأدميرال بلانت والكولونيل مونرو والكولونيل بايكواي وهنري هورشام فقد تخلّفوا ليواصلوا مناقشاتهم بحريّة أكثر في غياب الآخرين. قال الكولونيل بايكواي: حمداً لله على أنهم اصطحبوا معهم جورج باكهام، إنه يثير أعصابي.

فأردف الكولونيل مونرو قائلاً: سيدي الأميرال، كان ينبغي أن تذهب معهم؛ فلست أرى أن غوردون شيتويند أو جورج باكهام قادرَين على الحيلولة دون سفر سيدريك إلى روسيا أو الصين أو إثيوبيا أو الأرجنتين أو إلى أي مكان آخر يحلو له.

فنظر الأميرال إلى الكولونيل بايكواي بفضول وقال متسائلاً: ما هو الانطباع الذي تركته قصّة هتلر في نفسك؟ هل فوجئت بها؟

- لم تكُن هذه القصّة هي الأولى التي سمعنا بها في غمرة الإشاعات، قد تكون صحيحة وقد لا تكون، وفي مثل هذه الأحوال تكثُر مثل هذه الإشاعات وتنتشر. إن الجثّة التي عثر

عليها الروس في المخبأ لم يتعرّف عليها أحد بصفة قاطعة.

ونهض الأميرال مستأذناً في الانصراف فقال مونرو: أعتقد أن الدكتور ريخارد يعرف الحقيقة، وإن كان قد حرص على عدم الجزم بذلك أمامنا.

فاستدار الأميرال وهو ممسك بقبضة الباب قائلاً: وماذا عن الأعجوبة ذي الشعر الذهبي، ابن هتلر؟

فقال بايكواي معقّباً: لا عليك منه.

فعاد الأميرال أدراجه ليستأنف مجلسه بينهم ويستمع إلى بايكواي الذي قال: أراهن على أن هتلر لم يكُن له ولد في يوم ما.

- لا يمكنك أن تجزم بذلك.

- بل أنا واثق ممّا أقول، إن ذلك الفرانز جوزيف أو سيغفريد الشاب الزعيم المقدّس ليس بأكثر من أكذوبة وخُدعة، إنه ابن تاجر أرجنتيني وفتاة جميلة شقراء كانت مغنّية أوبرا ألمانية من الدرجة الثالثة، وقد ورث الابن طلعته الوسيمة من والدته وأُحسِن اختياره للدور الذي يؤدّيه. وكان ذلك الشاب في مطلع صباه ممثلاً محترفاً حرصوا على وشم قدمه بالصليب المعقوف انتقاماً لقريتهم.

- وهل لديك دليل على ما تقول؟

فابتسم بايكواي وقال مجيباً: دليل قاطع حصل عليه واحد من خيرة عملائي، إنها وثيقة تتضمّن إقراراً حاسماً وصوراً فوتوغرافية لبيانات موقّعاً عليها من الأم ومن الطبيب

عن تاريخ عملية الوشم، وصورة طبق الأصل من شهادة ميلاد كارل إغيليروس، ودليل موقّع عليه على أنه هو المدعوّ فرانز جوزيف. هذا ما استطاع عميلي أن يحصل عليه.

- وأين توجد تلك الوثائق الآن؟

- في مكان أمين، في انتظار استعمالها في اللحظة المناسبة.

- وهل تعرف الحكومة هذا؟ أو هل يعرف رئيس الوزراء على الأقلّ؟

- لقد دأبت في عملي على عدم إحاطة السياسيين علماً بكل ما لديّ من معلومات قبل أن أتأكّد من أنهم سيتّخذون الخطوات الصحيحة.

فقال مونرو: أنت شيطان عجوز يا بايكواي!

فقال بايكواي بحزن: هذا لا بدّ منه أحياناً.

* * *

-١٩-

كان لدى السير ستافورد ناي بعض الضيوف يقوم على إكرام وفادتهم، ولم يكُن قد سبق له معرفتهم وإن كان مرآهم يسرّ الناظرين بوجه عام، ثم راح يتساءل في نفسه قائلاً: ماذا يريد ضيوفي منّي؟

كان يعرف أن أحدهم ابن لأحد ملوك البترول، والثاني ممّن انصرفوا إلى العمل السياسي بعد تخرّجه في الجامعة، والثالث شاب غريب الأطوار يبدو الشك في عينيه وحركاته. بادره الشاب الأشقر الذي يبدو أنه زعيم الثلاثة قائلاً: نحن نشكر لك موافقتك على استقبالنا يا سير ستافورد.

وكان لنبرات صوته وقع جميل على السمع، وكان اسمه كليفورد بانت، وقد قام بتقديم زميليه قائلاً: هذا هورو ريك كتلي، وهذا جيم بروستر. نحن جميعاً قلقون من أجل المستقبل. تُرى هل أحسنت التعبير؟

كانوا جميعاً من الشباب وعلى جانب كبير من الوسامة والذكاء فقال ناي: أعتقد أن أحسن تعقيب على ذلك هو أن هذا شأننا جميعاً.

فعقّب كليفورد بانت قائلاً: نحن غير راضين عن مجريات

الأمور، التمرّد والفوضى وكل ما هو من هذا القبيل. إن هذه الأمور لا بأس بها كنظريات فلسفية، وبصراحة أنا أرى أننا نمضي في طور لنجتازه إلى آخر لا يختلف عنه كثيراً. نحن نريد للشباب القدرة على متابعة حياتهم الأكاديمية دون توقّف، نريد مظاهرات سلميّة تكون بعيدة عن التهريج والعنف، مظاهرات واعية مدركة، وفي الحقيقة إن ما نريده بصراحة هو حزب سياسي جديد، وقد كان لجيم بروستر هذا دور في ابتكار نظريات وخُطط جديدة تتّصل بشؤون نقابات العمّال، ولكنهم حاولوا أن يخذلوه ويسفّهوا آراءه وإن لم يفتّ هذا في عضده، أليس كذلك يا جيم؟

فأجابه جيم بروستر قائلاً: إن معظمهم بالغ الحمق ضيّق الأفق.

فقال بانت: نحن نريد سياسة جادة رشيدة للشباب وأسلوباً للحُكم أكثر اقتصاداً، نريد تغييراً شاملاً في كل نُظم الحُكم. خلاصة القول نحن نريد الوسيلة التي نصل بها إلى مقاعد الحُكم لنضع كل هذه الأماني والآمال موضع التنفيذ، إن معنا الكثيرين ممّن انضموا إلى حركتنا، فنحن نمثّل الشباب بنفس القوة التي يعمل بها دُعاة العنف، نحن نمثل الآراء المعتدلة والحركة السليمة والعمل الرصين، وقد جئنا نعرض عليك أهدافنا لعلها تحظى بعنايتك، كما وقع اختيارنا عليك لأننا سمعنا عنك ما شجعنا على ذلك.

فعقّب السير ستافورد قائلاً: ألا ترى أن فيما تقوله وتعرضه عليّ ما يجافي الصواب؟ إن ما تعرضه عليّ ضرب من عدم الولاء.

- نحن لا نعرض عليك الانضمام إلى بلد آخر.

- لا، ليس هذا ما أعنيه على وجه التحديد، ولكنني أعتقد أن لهذه الدعوة صلة ببعض الاهتمامات الأجنبية. أنا عائد للتوّ من الخارج. كانت رحلة مشوقة، وقد قضيت الأسابيع الثلاثة الأخيرة في أمريكا الجنوبية. ولديّ ما أحب أن أحيطكم به علماً، لقد شعرت منذ عودتي إلى إنكلترا بأنه يوجد مَن يتعقّبني.

- يوجد مَن يتعقّبك؟! لعله قد خُيّل إليك هذا.

- لا، أنا واثق من ذلك، لذا كنتُ أفضّل أن يكون لقاؤنا في مكان آخر غير منزلي؛ فالإنسان يجب أن يكون أكثر حذراً في أيامنا هذه، وقد تعلّمت كثيراً في حياتي العملية وشهدت الكثير. لنعُد إلى ما كنا فيه من حديث، إن أمريكا الجنوبية منطقة من العالَم لها أهميتها القصوى.

ثم نهض ستافورد ناي ففتح أحد الأدراج وأخرج منه جهاز تسجيل قائلاً: أنا حديث العهد بعملية التسجيل.

وبدأ يُسمع المحاضرين لحناً، فلاحظ أن البعض منهم يصغي بانتباه فابتسم قائلاً: أرى أنكم تشاركونني الاستمتاع بموسيقى فاغنر. لقد عُزف هذا اللحن في مهرجان الشباب هذا العام حيث استمتعت بموسيقاه.

- هذا لحن من أوبرا!

- هذا نداء النفير لبطل شاب.

ثم أردف ستافورد ناي وهو يرفع ذراعه ويمدّ يده إلى الأمام بالتحية الهتلرية المشهورة: سيغفريد الجديد.

فنهض الضيوف الثلاثة وقوفاً، وقال كليفورد بانت: أنت على صواب، يجب علينا جميعاً أن نتوخّى جانب الحذر.

ثم صافحه واستطرد قائلاً: يسرّنا أن تنضمّ إلينا؛ فما سوف تحتاج إليه هذه البلاد مستقبلاً هو وزير خارجية من الدرجة الأولى.

ثم غادروا الغرفة منصرفين، ووقف السير ستافورد ناي يودّعهم بنظراته من فرجة الباب إلى أن استقلّوا المصعد، ثم ابتسم وهو يوصد الباب، وعاد يسترخي في أحد المقاعد بغرفة الانتظار بعد أن ألقى نظرة على ساعة الحائط.

وعادت به الذاكرة إلى مثل ذلك اليوم منذ أسبوع مضى، حينما افترق هو وماري آن في مطار كنيدي بأمريكا ومضيا كل واحد منهما في طريق، كانا قد وقفا هناك وقد أُرْتج عليهما القول، وكان هو أول مَن قطع حبل الصمت قائلاً: هل تعتقدين أنه سيقدّر لنا أن نلتقي مرّة ثانية؟

- وهل يوجد ما يحول دون ذلك؟

- كثير فيما أعتقد.

فنظرت إليه ثم أشاحت عنه بوجهها قائلة: هذا الفراق يجب أن يحدث؛ فهو جزء من عملنا.

- العمل؟ هذا العمل الذي يحتلّ كل تفكيرك.

- هذا ما يجب أن يكون.

- أنت محترفة، أما أنا فمن الهواة. مَن أنت؟ ومَن تكونين؟ أنا لا أعرف شيئاً عنك.

ثم نظر إليها فرأى الأسى على وجهها، الأسى البالغ حدّ الألم فقال: أترين أنه ينبغي لي أن أثق بك على الرغم من ذلك؟

- لا، وهذا ما علّمتني إياه الحياة؛ فلا يوجد ذلك الشخص الذي يمكن أن نوليه ثقتنا، فلتذكر هذا دائماً.

- إذن، فهذا هو عالمك، عالَم من الشك والخوف والمخاطرة.

- إن كل ما أرجوه هو أن أظلّ على قيد الحياة.

- أُدرك هذا.

- كما أُريد لك أن تبقى على قيد الحياة.

- لقد أوليتك ثقتي في فرانكفورت.

- ولقد خاطرت بذلك.

- كانت مخاطرة تساوي الكثير، وأنت تدركين هذا جيداً.

- تعني لأن...

- أعني لأنها أتاحت لنا أن نقضي فترة معاً، والآن ها هم يعلنون رقم طائرتي. هل قُدّر لزمالتنا التي بدأت في أحد المطارات أن تنتهي هنا في مطار آخر؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ وماذا أنت فاعلة؟

- سأذهب إلى بلتيمور وواشنطن وتكساس لأقوم بما عُهد إليّ القيام به.

- وماذا عنّي؟ أنا لم يُعهد إليّ بشيء سوى أن أعود أدراجي إلى لندن، فماذا عليّ أن أفعل هناك؟

- تنتظر.

- أنتظر؟! أنتظر ماذا؟

- تنتظر ما ستتكشّف عنه الأحداث.

- وماذا بعدُ؟

فانفرجت شفتاها عن ابتسامتها المرحة التي عهدها ثم قالت: ثم تقوم بدورك الذي سيُملَى عليك من أناس سيتصلون بك، وسوف يحسُن اختيارهم لأن هذا من الأهمية بمكان.

- عليّ أن أسرع الآن. وداعاً يا ماري آن.

وما إن فرغ من استعراض موقف الوداع حتى أيقظه رنين الهاتف من تأمّلاته، فنهض إلى حيث رفع السمّاعة ليدوّي في أذنه صوت لم يخطِئه قائلاً: ستافورد ناي؟

فأجاب بما هو مطلوب منه قائلاً: لا دخان بغير نار.

- لقد أشار عليّ طبيبي بالإقلاع عن التدخين. هل من أنباء؟

كان المتحدّث هو الكولونيل بايكواي، فأجابه ناي قائلاً: أجل، ثلاثة قطع من الفضة تبشّر بالكثير، وقد وعدتُ...

- بماذا؟

- لقد أسمعتهم لحناً، لحن نفير سيغفريد. كنت أعمل بمشورة عمّة عجوز، وقد أنتج اللحن أثره.

- لا أكاد أصدّق ما أسمع!

- هل تعرف أغنية اسمها جوانيتا؟ يجب أن أُلمّ بهذا اللحن؛ فربما غدوت بحاجة إليه.

- وهل تعرف مَن تكون جوانيتا؟

- أعتقد هذا.

- عجباً! لعلك سمعت عنها في بلتيمور أخيراً.

- ماذا عن فتاتك اليونانية دافن تيودوفانوس؟ تُرى أين هي الآن؟

- جالسة في مطار بمكان ما من أوروبا في انتظارك على ما أظن.

- إن معظم المطارات الأوروبية مغلَقة بسبب الأحداث الأخيرة!

* * *

-٢٠-

بادر الأميرال بلانت الفتاة التي فتحت الباب بقوله: لقد خُيّل إليّ أنكم جميعاً في عالَم الأموات.

كان كلامه موجّهاً إلى الفتاة التي لا يذكر سوى اسمها الأول آمي والتي ينسى دائماً لقبها، ثم استطرد قائلاً: لقد حاولت الاتصال بكم هاتفياً في الأسبوع الماضي أكثر من مرّة فقيل لي إنكم سافرتم إلى الخارج.

- كنا في الخارج فعلاً وقد عدنا لتوّنا.

- ما كان ينبغي لماتيلدا أن تفعل ذلك وهي في مثل سنها هذه، إن ركوب الطائرات لا يتّفق وارتفاع ضغط الدم أو ضعف القلب، ثم إن ركوب الطائرات أصبح غير مأمون العاقبة في أيامنا هذه.

- لقد وافق طبيبها على سفرها.

- هذا هو شأن الأطباء دائماً.

- لقد أفادتها هذه الرحلة كثيراً.

- إلى أين سافرت؟

- إلى ألمانيا للاستشفاء، ولست أدري على وجه التحديد

أكانت ألمانيا أم النمسا!

- وهل استمتعتم بإقامتكم؟

- إلى حدٍ ما؛ فقد كانت المناظر خلاّبة، إلا أن...

وهنا دوّى صوت من الطابق الأعلى منادياً: آمي، آمي، ماذا تفعلين؟ فيمَ هذا الحديث الطويل في البهو؟ ليصعد الأميرال بلانت فوراً، أنا في انتظاره.

وبعد أن قام الأميرال بلانت بتحيّة صديقته القديمة قال لها: أتراك تحذين حذو غاليفر في رحلاته؟ ألا تعرفين أنك تقتلين نفسك بهذه الطريقة؟

- لم يعُد في السفر مشقّة في أيامنا هذه!

- كيف، مع تلك المطارات وتلك السيارات الكبيرة وذلك الدرَج المتحرّك أو غير المتحرّك؟ إن الأمر لا يقتصر على ركوب الطائرة فقط!

- كنت أستعمل مقعداً متحرّكاً.

- لقد كنت تزعمين منذ عام أو عامين أنك لست بحاجة إلى ذلك المقعد.

- دعنا من هذا يا فيليب وحدّثني عن السبب الذي جعلك تزورني بعد أن انقطعت عن زيارتي لأكثر من عام.

- معذرة لانشغالي عنك، ثم إن صحّتي لم تكُن على ما يُرام.

فقالت السيدة ماتيلدا: ولكنني أراك بخير. ليكُن، ما الذي جاء بك؟

وأمرت السيدة ماتيلدا الفتاة آمي بأن تقدّم للزائر كأساً من العصير. وبعد أن غادرت آمي الغرفة لتنفيذ الأمر قال بلانت: حينما تعود بالعصير عليك أن تتخلّصي منها؛ فأنا أريد أن أتحدّث إليك حديثاً خاصاً.

ثم عادت آمي بالعصير، ونفّذت السيدة ماتيلدا ما سألها إياه ضيفها، وبعد أن أغلقت الفتاة الباب بدأ بلانت حديثه فقال لها: لقد جئت لاستشارتك.

فقالت السيدة ماتيلدا: في أي شيء؟ في أمر يتّصل بصحتك أم في شأن من شؤونك الخاصة؟

- لا، إنها استشارة في أمر خطير، وقد دار بخلدي أنك ربما استطعت أن تستعيدي ذكرى شيء من أجلي.

- من أين لك هذه الثقة في ذاكرتي يا عزيزي فيليب؟ إن التقدّم في السن له أثره العميق في من بلغ عمري. أنا لم أعُد أذكر سوى أحداث الصبا وأصدقاء الشباب.

- أين كنت؟

- كنت في زيارة صديقة قديمة لم أرَها منذ أربعين أو خمسين عاماً.

فقال بلانت: ومَن هي؟

- هي من أكثر النساء بدانة وأبشعهن خَلقاً.

- يا له من ذوق شاذ!

فقالت ماتيلدا: هيا حدثني بما تريد منّي أن أستعيد ذكراه.

- كنت أتساءل عمّا إذا كنت تذكرين شيئاً عن صديق يُدعى روبرت شورهام.

- روبرت شورهام؟ بكل تأكيد.

فقال بلانت: العالِم الكبير.

- أجل، بكل تأكيد، إنه من طراز لا ينساه المرء. تُرى ما الذي دعاك إلى ذكره؟

- موضوع عام.

- أنا أعجب لأنني أسمع منك ذلك! إن هذا هو عين ما دار بخلدي في ذلك اليوم.

- ما الذي دار بخلدك؟

- إنهم في حاجة إليه أو إلى مَن هو على شاكلته إن وُجد.

- أعتقد أنه لا يوجد له نظير. ماتيلدا، أصغي إليّ، أريد أن أعرف إذا ما كان روبرت قد تحدّث إليك عن شيء يُطلَق عليه اسم المشروع «ب» أيام كان يستطيع ذلك.

- المشروع «ب»؟ يُخيّل إليّ أنني سمعت بشيء من هذا القبيل، المشروع كذا أو العملية كذا. ولكن يجب أن تعرف أنني لم أكُن أفهم شيئاً من حديثه، إلا أنه كان يجد مسرّة فيما يختلج به وجهي من أمارات الدهشة. المشروع «ب»؟ أجل، لقد كان هذا منذ فترة طويلة، وكان منفعلاً به، ولطالما كنت أستفسر منه بين الحين والآخر عمّا تمّ بشأن ذلك المشروع.

- كنت واثقاً من قوّة ذاكرتك! والآن أريد أن أسمع المزيد عمّا حدثك به روبرت عن المشروع «ب».

- قد أجد في هذا مشقّة، لقد ذكر ذلك المشروع في معرض حديثه عن عملية تتّصل بعقول الناس، هؤلاء الناس الذين ينظرون إلى ما حولهم بمنظار أسود ويستبدّ بهم القنوط إلى حدّ التفكير في الانتحار، والذين يعانون من عُقد نفسية نتيجة لحالات من النورستانيا الشديدة، إلى آخِر هذه الظواهر التي تحدّث عنها فرويد، ثم كان يتحدّث بعد ذلك بأسلوب علميّ يُقرنه بتنفيذ المشروع «ب». ولعلك تدرك أنه ليس في وسعي أن أُعيد سرده على سمعك لأنني لم أكُن أفهم منه شيئاً في أثناء متابعتي له.

- ألا تستطيعين أن تذكري طرفاً من هذا الحديث العلمي؟

- حينما كان يحدّثني عن ظاهرة القنوط هذه قلت له: "لماذا لا ينصرف العلماء إلى اختراع ما يجعل مثل هؤلاء الناس يشعرون بالسعادة؟ هذا أمر لن يستعصي على هؤلاء العلماء"، وكان قد حدّثني عن تلك الجراحة في المخّ التي يحاولون بها استئصال أسباب القنوط والقلق، فقلت له: "إنه في وسع هؤلاء العلماء أن يتوصّلوا إلى اختراع يشيع السعادة في قلوب الناس ويعمل على استرخاء أعصابهم، هذا إذا أرادوا". ولم أكُن أعني تلك الأقراص المنوّمة والمهدّئة طبعاً. وكان يصغي إليّ باهتمام ويقول مردّداً: يا لها من فكرة صائبة!

- وهل هذا هو مضمون المشروع «ب»؟

فقالت ماتيلدا: لا أدري، فهو لم يحدّثني عن تفصيلاته أو بكُنهه، ولا بما ينطوي عليه صدره. لقد كنت أتحدّث عن سعادة الناس وما يكفل للجميع الشعور بالبهجة والانشراح، وأنت تعرف أنني لا أحب أن أسمع شاكياً أو باكياً؛ فأنا أحب الخير للجميع. لقد تحدّث عن المشروع «ب» كما تحدّث عن غيره، وقد اختلط الأمر في ذهني.

فسألها الأميرال بلانت قائلاً: هل هذا هو كل ما تذكرينه عن المشروع «ب» أو ما يتّصل به؟

- هذا ما أعتقده، وأذكر أنني استفسرت منه، بعد فترة، عمّا تمّ بشأن مشروع «ب» فقال لي إنه وضعه على الرفّ مؤقتاً، ثم أقبل متسائلاً في يوم ما عمّا إذا كنت أذكر هذا المشروع فأجبته بأنني أذكر أنه نحّاه جانباً، ثم علمت أنه عاد إلى إحيائه بناءً على ما استجدّ من أسباب مشجّعة وخواطر ملحّة، ثم راح يتحدّث عن تجاربه الجديدة واحتمالات النجاح، كما وردت على لسانه أسماء بعض الأدوية والعقاقير، ثم لاحظت تردّده بين احتمالات المخاطرة واحتمالات النجاح المرتقَب. ولعلك أكثر دراية منّي بعقلية هؤلاء العلماء وأسلوب تفكيرهم.

- وماذا عن رأي زملائه من العلماء؟ وما هو أصل حرف «ب» الذي يقرنه بالمشروع؟

- اختصار للكلمة التي تعني الخير، أما بالنسبة لمَن كان يعاونه في المشروع فقد كانت تعمل معه في المشروع فتاة نمساوية تُدعَى ليزا وشاب اسمه ليدنتال، ولكن هذا الأخير مات متأثراً بمرض السلّ، أما سائر مَن كانوا يعاونونه في العمل

فليسوا من العلماء ولا يعرفون شيئاً عمّا يفعلونه، وأعتقد أنه لم يُفضِ إلى أحد بسرّه، كما أنه أحرق مذكّراته قبل أن يُقلع عن المَضِي قدماً في تنفيذ أو استكمال مشروعه، ثم كان أن مرض وأُصيب بالشلل، وهو الآن يقضي حياته في الاستماع إلى الموسيقى.

- أي أن حياته العملية قد انتهت، أليس كذلك؟

- بلى، وهو يُؤْثر العزلة عن الناس ويعتذر عن استقبال أصدقائه.

فسألها بلانت قائلاً: هل لديك عنوانه؟

- نعم، هو يقيم في شمال اسكتلندا، ولكن يجب أن لا تنسى أنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة وإنه لم يعُد يصلح لشيء.

فقال الأميرال بلانت معقّباً: يجب أن لا يفقد الإنسان الأمل والرجاء والإيمان ما دام على قيد الحياة.

* * *

-٢١-

كان العالِم جون جوتليب قاعداً في مقعده يمعن النظر إلى السيدة الجميلة القاعدة أمامه، أما هو فكان دميماً أقرب شبهاً بالقرد منه بالإنسان، وقال بعد أن أتى بحركة عصبية: أنْ تحمل سيدة شابة رسالة من رئيس الولايات المتحدة فهذا أمر لا يحدث كل يوم. ومع ذلك فإن الرؤساء لا يعرفون ما يفعلون دائماً. فيمَ هذا كله؟ أرى أنك مفوّضة بجميع السلطات!

- لقد جئت كي أستفسر منك عمّا تعرفه عن مشروع يُسمّى «مشروع بينفو».

- هل أنت الكونتيسة ريناتا زركوفسكي حقاً؟

- نعم، والمعروفة باسم ماري آن.

- وتريدين أن تلمّي بمشروع بينفو؟ حسناً، لقد كان يوجد مشروع بهذا الاسم ولكنه مات وقُبر، وقد يكون هذا هو نفس مصير الرجل الذي يرجع إليه الفضل فيه.

- أتعني العالِم شورهام؟

- أجل، روبرت شورهام، وهو قمّة في النبوغ والذكاء غير أنه لم يُقدّر لهذا العالِم الفذّ طول بقاء. إنّ فقده خسارة كبرى للعلم.

فقالت ريناتا: ولكنه ما زال على قيد الحياة.

- هل أنت واثقة ممّا تقولين؟ نحن لم نسمع عنه شيئاً منذ فترة طويلة.

- إنه مريض، ويقيم في شمال اسكتلندا، كما أنه مُصاب بالشلل ولا يستطيع التحدّث بسهولة ولا الانتقال من مكانه إلا بصعوبة، بالإضافة إلى أنه يقضي وقته في الاستماع إلى الموسيقى.

- فهمت، ويسرّني أنني سمعت أنه على قيد الحياة، ومع ذلك أرى أنه في حُكم العدَم.

- إذن فقد كان يوجد مشروع بهذا الاسم.

- أجل، وكان مهتماً به إلى أقصى حدّ.

- وهل تحدّث إليك بشأنه؟

- نعم، لقد تحدّث إلى البعض منا في باكورة أيامه. هل أنت من العلماء؟

- لا، أنا...

- أنتِ مجرد عميلة، وأرجو أن تكوني موفَدة من الفريق المصيب الملتزم بالحق، ومع ذلك فلست أعتقد أنك ستحصلين على شيء من مشروع بينفو.

فسألته ريناتا قائلة: ولِمَ لا؟ ألم تقُل إنه كان يعمل لتحقيقه؟ إن ذلك المشروع لو تمّ تنفيذه لكان من الممكن أن يصبح اختراعاً عظيماً.

- أجل، فلو كان قد تحقق ذلك لرأينا فيه اكتشافاً له قدره الكبير في عصرنا هذا، ولست أدري السبب في توقّف خطوات العمل به وما صادفه من عثرات، ولا السر في انصراف شورهام عنه والإقلاع عن إنجاز ما كان بسبيل إنجازه! والأدهى من ذلك أنه لم يُبقِ على شيء من مدوّناته كما قال لي؛ فقد أحرق جميع الأوراق التي فيها التركيبات. وبعد أن قام بذلك أُصيب بالشلل في مدى ثلاثة أسابيع. هذا هو الواقع، ولذلك تجدينني عاجزاً عن إجابة سؤالك؛ فأنا لا أذكر عن المشروع سوى اسمه وسوى أن كلمة «ب» ثم «بينفو» تعني كلمة الخير، هذا هو كل ما أذكره عن ذلك المشروع الذي كنت أودّ أن يتمّ.

* * *

-٢٢-

كان السير ألتامونت يقوم بالإملاء، وبدا صوته (الذي كان في يوم من الأيام مدوّياً وذا سطوة وجبروت) رقيقاً خفيضاً هادئاً وكأنه طيف من الماضي يختلف عاطفة وتأثراً، وكان جيمس كليك يدوّن الكلمات كما تصدر عن صاحبها، ولا يتوقّف عن الكتابة إلا في تلك الفترات من التردّد والترقّب. قال السير ألتامونت: إن المثالية يمكن أن تنهض حينما تثيرها الخصومة الطبيعية للظلم، وهذا هو الانتكاس الطبيعي للمادية المركزية، كما أن مثالية الشباب الطبيعية تغذيها على مرّ الزمن تلك الرغبة في القضاء على هذين الوجهين للحياة العصرية، الظلم والمادية الثقيلة. والرغبة العارمة في القضاء على كل ما هو شرّ تؤدّي إلى استمرار العنف وإيلام الغير، وجميع هذه الخصال يمكن أن تقوى وتستشري نتيجة لما يقوم به الغير ممّن أوتوا موهبة الزعامة المتسلّطة. وجدير بالذكر أن الجيد من هذه الخصال يمكن أن يُنمّى ويُوجّه إلى حب الخير للناس قاطبة، أما الرديء منها، وبالذات حب العنف لمجرّد العنف، فلا يمكن أن يستقيم عوده، بل يبقى على حاله الذي جُبل عليه.

وفي تلك اللحظة سُمع أزيز جهاز الاتصال الداخلي، وعلى إثر إيماءة بالموافقة من ألتامونت رفع جيمس السمّاعة ثم قال: سيد روبنسون هنا.

- دعه يدخل، ويمكننا أن نستكمل هذا فيما بعد.

ثم نهض جيمس تاركاً كرّاسته وقلمه. وأقبل السيد روبنسون الذي أعدّ له جيمس مقعداً مريحاً، فابتسم السيد روبنسون شاكراً وهو يتّخذ له مجلساً إلى جانب السير ألتامونت الذي بادره قائلاً: حسناً، هل جئت بجديد؟ رسوم هندسية، دوائر؟

- بل أكثر من ذلك. لقد جئت بتخطيط لمجرى النهر.

- نهر؟! أي نهر؟

- نهر من المال، إن المال أشبه ما يكون بالنهر الذي ينبع من مكان ما وينتهي حتماً إلى مكان ما، وهي أمور بالغة التشويق هذا إذا كانت تعنيك حقاً؛ فهي تحدّثنا بالكثير.

فقال ألتامونت: فهمت، استمرّ في حديثك.

- إنه يتدفّق من إسكندنافيا وبافاريا والولايات المتحدة وجنوب شرق آسيا، كما تمدّه روافد أقلّ شأناً في طريق مجراه.

- وإلى أين المصبّ؟

- أساساً إلى أمريكا الجنوبية، لسدّ حاجات القيادة الجديدة للشباب المناضل والمتمثّل في أربع من الدوائر الخمس التي اطّلعت عليها، وهي التسليح والمخدرات ووسائل الحرب العلمية والكيميائية والتمويل.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- نعم، ونعتقد أننا قد توصّلنا إلى الكشف عمّن يسيطر على تلك الهيئات.

فقال جيمس متسائلاً: وماذا عن الدائرة الخامسة «ج» جوانيتا؟

- لم نستوثق من أمرها بعد.

فعقّب السير ألتامونت بقوله: إن لجيمس وجهة نظر في هذا الموضوع، وأتمنّى أن يكون مخطئاً فيما يرى. إن الحرف «ج» يسترعي الانتباه. أتراه يرمز إلى العدالة أم إلى القصاص؟

فقال جيمس: إنه يرمز إلى القاتل المكرّس لهذه العملية، والنساء في هذا المجال أشدّ فتكاً من الرجال.

فأقرّه ألتامونت على وجهة نظره بقوله: توجد سوابق تاريخية نعرفها كلنا.

فبادره السيد روبنسون بسؤاله قائلاً: أتعتقد أنك تعرف مَن هي جوانيتا؟

فردّ كليك قائلاً: ربما كنت مخطئاً يا سيدي، ولكن يوجد من الشواهد ما حدا بي إلى الاعتقاد بأنني أعرفها.

فقال ألتامونت: من الخير أن تُفصح عن رأيك وما يجول بخاطرك يا جيمس.

- إنها الكونتيسة ريناتا زركوفسكي.

- وما هو دليلك على هذا؟

- الأماكن التي كانت تتردّد عليها والناس الذين كانت تتّصل بهم. لقد كانت تنقّلاتها ولقاءاتها أبعد ما تكون عن مجرّد مصادفة؛ فقد كانت في بافاريا وهناك قامت بزيارة لشارلوت

الضخمة، بل وأكثر من ذلك، فقد عمدت إلى اصطحاب ستافورد ناي معها. وأنا أرى أن في ذلك خير دليل.

فتساءل ألتامونت قائلاً: أترى في ذلك دليلاً على اشتراكهما معاً؟

- لا أودّ أن أزعم شيئاً من هذا القبيل، فمعلوماتي عنه قاصرة، وإن كنت...

ثم توقّف عمّا كان يريد أن يقوله، فأردف السير ألتامونت قائلاً: أجل، توجد شكوك تحوم حوله؛ فقد كان موقفه مريباً منذ البداية، وكان هذا هو رأي هنري هورشام فيه أيضاً، وكذلك الكولونيل بايكواي فيما أظن. لقد كان ستافورد موضوعاً تحت الملاحظة، وربما كان يدرك هذا لأنه ليس بالرجل الفاضل.

وهنا قال السيد روبنسون: ستافورد ناي تقوده ريناتا أو قُل جوانيتا.

فقال كليك موضّحاً: يجب أن تذكر ما حدث في مطار فرانكفورت، ثم تلك الزيارة لشارلوت، وأخيراً سفره مع ريناتا إلى أمريكا الجنوبية، أما هي فماذا نعلم عن تحرّكاتها؟ وأين هي الآن؟

فعقّب السير ألتامونت قائلاً: يُخيّل إليّ أن روبنسون يعرف الإجابة عن هذا السؤال، أليس كذلك يا سيد روبنسون؟

- بلى، إنها في الولايات المتحدة، وسمعت أنها كانت في شيكاغو ثم في كاليفورنيا، ثم سافرَت إلى حيث قامت بزيارة لأحد العلماء البارزين، هذا كان آخِر ما سمعته عنها.

- وماذا كانت تريد من ذلك؟

- من الطبيعي أنها كانت تسعى للحصول على بعض المعلومات.

- أية معلومات؟

- كان بودّي أن أعرف هذا؛ فقد تكون هذه المعلومات هي ما نسعى نحن للحصول عليه. ومَن يدري؟ أتفعل ذلك لحسابنا أم لحساب الطرف الآخر؟

ثم اتجه بحديثه إلى ألتامونت قائلاً: أنت مسافر الليلة إلى اسكتلندا، أليس كذلك؟

- بلى.

فقال كليك: أنا لا أوافق على هذه الرحلة يا سيدي؛ فصحتك ليست على ما يُرام والرحلة شاقة بالنسبة إليك سواء أكانت جواً أو براً. ألا يمكن أن تدع هذه المهمّة لمونرو وهورشام؟

- من العبث أن يركّز اهتمامه في العناية بصحّته مَن هو في مثل سنّي، فما دمت أشعر بأنني قادر على القيام بشيء جاد فمن الخير لي أن ألفظ أنفاسي وأنا أعمل كما يقولون.

ثم التفت إلى روبنسون قائلاً وهو يبتسم: يجدر بك أن تصحبنا.

* * *

-٢٣-

كان قائد الطائرة لا يفتأ يتساءل عمّا يعنيه هذا كله؛ ففيما يشاهده ما يوحي بأن وراء الأكمة ما وراءها. إن قيادة طائرة إلى مكان غير مألوف بمسافرين غير عاديين أمر يدعو إلى التساؤل والحيرة. صحيح أنه يعرف بعض المسافرين بهذه الطائرة ولكنه لا يعرف الباقين.

لقد تعرّف على السير ألتامونت، ذلك الرجل العليل الذي ظلّ على قيد الحياة بفضل قوّة إرادته، كما تعرّف على ذلك الرجل الصقريّ الوجه الذي يرافقه، ولا بدّ من أنه حارسه الخاص، كما تعرّف قائد الطائرة على هنري هورشام رجل الأمن، والكولونيل مونرو الذي كان يبدو قلقاً، أما ذلك الرجل البدين الأصفر الوجه فإنه أجنبي على الأرجح، وقد يكون آسيوياً. تُرى ماذا سيفعل في شمال اسكتلندا؟

كانت توجد سيارة في انتظارهم عند محطّة الوصول، واستفسر الكولونيل مونرو عن المسافة بين المطار ووجهتهم فعلم أنها سبعة عشر ميلاً في طريق وعر، وقبل أن يستقلّوا السيارة سأل مونرو قائد الطائرة أن يعيد على سمعه ما لديه من أوامر، وبعد أن اطمأنّ إلى أنه لم يغفل منها شيئاً انطلق هو ورفاقه بالسيارة تاركاً قائد الطائرة في عجب من أمر هؤلاء الرجال الذين

يتجشّمون مشقّة السفر إلى تلك القلعة القديمة التي يقيم فيها رجل مريض عاجز!

مضت السيارة بهم إلى أن توقّفت أمام باب القلعة القديم، وفُتح الباب الضخم قبل أن يطرقه أحد، ثم رأوا أمامهم امرأة اسكتلندية تجاوزت الستين من عمرها بوجهها الجاد ونظراتها الصارمة. وقام كل من هورشام وجيمس كليك بمعاونة السير ألتامونت على ارتقاء الدرَج، فتنحّت المرأة الاسكتلندية جانباً لتفسح الطريق للقادم الكبير قائلة: مساء الخير يا سير ألتامونت، إن السيد في انتظارك لأنه يعلم بقدومك. لقد أعددنا الغرف اللازمة لكم وأوقدنا فيها المدافئ.

وفي البهو كانت تقف سيدة فارعة الطول قد قاربت الستين من عمرها، ولكنها كانت محتفظة بآثار جمالها معنية بأناقتها، وقد قدّمتها لهم المرأة الاسكتلندية قائلة: هذه هي الآنسة نيومان التي ستتولى العناية بكم وتقوم على رعايتكم.

قالت الآنسة نيومان: شكراً يا جانيت، عليك أن تتولي أمر نيران المدافئ في الغرف.

- سمعاً وطاعة.

مدّ السير ألتامونت يده ليصافحها قائلاً: طاب مساؤك يا آنسة نيومان.

- طاب مساؤك يا سير ألتامونت، أرجو أن لا تكون الرحلة قد أتعبتك.

- لقد كان الطيران مريحاً. هذا هو الكولونيل مونرو يا آنسة نيومان، وهؤلاء هم السيد روبنسون، والسيد جيمس كليك،

والسيد هورشام من مصلحة الأمن العام.

- أنا أذكر لقائي بالسيد هورشام منذ بضعة أعوام.

فعقّب هنري هورشام قائلاً: أنا لم أنسَ ذلك اللقاء. لقد تمّ في مؤسسة ليفسون، وكنت سكرتيرة العالِم شورهام حينذاك.

- كنت مساعدته في المعمل ثم أصبحت سكرتيرته وما زلت كذلك، كما أنه بحاجة إلى ممرّضة تقوم على رعايته صحياً بالتناوب مع غيرها، والآنسة أَلِيس هي الموجودة حالياً، وقد استلمت العمل من الآنسة بيود منذ يومين، ورأيت أن تكون على مقربة منه عند اجتماعكم به.

فسألها السيد مونرو قائلاً: هل ساءت صحّته كثيراً.

- يمكن أن نوجز بإيضاح حقيقة حالته الصحية بأنه ليس أكثر من حطام.

فسألها قائلاً: وماذا عن قواه العقلية؟ هل يستطيع أن يعي ما يُقال له؟

- نعم، تمام الوعي، غير أنه لا يستطيع الكلام بطلاقة. أنا أرى إن عقله لم يتأثّر بمرضه.

ثم تقدّمتهم ليزا نيومان مرتقية الدرَج إلى دهليز حيث فتحت باب غرفة متوسّطة الحجم. وكان في جانب الغرفة جهاز تسجيل، وكان الرجل المديد القامة جالساً في مقعد بجوار المدفأة وآثار الشلل واضحة على وجهه وفي حركة يده اليسرى. لا شك في أنه كان حطام رجل كان في يوم ما طويل القامة قوي البنية. وكانت عيناه تشعّان ذكاء ووعياً وكأنه يحاول أن

يقول شيئاً، ثم ذهبت ليزا نيومان كي تقف إلى جانبه وهي تتابع حركات شفتيه لتقوم بتفسير ما يقوله ثم قالت: إن السيد شورهام يرحّب بكم، وهو سعيد بزيارتكم ويريد منّي أن أخبركم أنه قادر على سماع ما تقولون بجلاء، أما ما يريد أن يقوله فسوف أعاونكم على فهمه.

فقال مونرو: سأحاول أن لا أُثقل عليك يا سيدي.

فأومأ الرجل المريض برأسه عرفاناً وتقديراً فتابع مونرو قائلاً: هل يمكن أن أوجّه بعض الأسئلة إلى الآنسة نيومان؟

فأومأ الرجل العليل برأسه مرّة أخرى موافقاً فقال مونرو: لقد تلقيت رسالة منّي، أليس كذلك؟

- بلى، لقد تسلّمها السيد شورهام واطّلع على ما بها.

وعندئذ فُتِح الباب وأطلّت منه إحدى الممرضات وقالت بهمس: هل تريدين شيئاً يا آنسة نيومان؟

- شكراً يا آنسة أَلِيس، أرجو أن تظلّي بغرفتك عبر الدهليز لتكوني على مقربة منا.

- بكل تأكيد.

ثم أوصدت الباب برفق لتعود إلى مكانها، فقال مونرو: لا شك في أن السيد شورهام يتابع مجرى الأحداث، أليس كذلك؟

- بلى، هو ملمّ بكل ما يهمّه الإلمام به.

- هل هو على اتّصال بالإنجازات العلمية الحديثة؟

كان روبرت شورهام هو الذي تولى الإجابة هذه المرّة فقال: لقد انصرفت عن كل ما يمتّ إلى العمل بسبب ونفضت يدي من ذلك.

- ولكنك تدرك ما يحدث في العالَم وما أحرزته ثورة الشباب من نجاحٍ، وكذلك محاولة هؤلاء للاستيلاء على مقاليد الأمور في العالَم.

فقالت الآنسة نيومان: هو على اتّصال بكل ما يجري من الناحية السياسية فقط.

- إن العالم يتعرّض لأعمال من العنف. لقد أصبح ضحية لاتجاهات ثورية عارمة ونظرية غير معقولة عن حُكم الأقليّة الفوضوية!

فتقدّم السيد روبنسون قائلاً: إنه يعرف كل هذا؛ فلا حاجة بنا إلى إضاعة الوقت في ترديد هذه الحقائق التي يدركها الرجل تمام الإدراك. سيدي، هل تذكر شيئاً عن الأميرال بلانت؟

فأومأ الرجل برأسه إيجاباً وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عابرة، فمضى روبنسون قائلاً: إن الأميرال بلانت يذكر شيئاً عن جهودك العلمية في مشروع معيّن، مشروع بينفو.

وتبيّن الجميع ما ومضت به عينا الرجل، فأجابت الآنسة نيومان قائلة: مشروع بينفو؟! أنت تعود بالزمن القهقرى يا سيد روبنسون.

- لقد كان ذلك المشروع مشروعك، أليس كذلك؟

وكانت الآنسة نيومان هي التي تتولى الإجابة دون تردّد:

بلى، لقد كان مشروعه.

- نحن لا نستطيع استعمال الأسلحة الذريّة، وكذلك لا نستطيع استعمال المتفجّرات أو الغازات السامّة أو الكيميائيات، أما مشروع بينفو فهو ما نقدر على استعماله.

وخيّم السكون على الغرفة وران صمتٌ مطبق على الجميع، ثم بدأ السيد شورهام يحاول النطق والتحدّث إليهم، فقالت الآنسة نيومان محاولة التعبير عمّا يريد قوله: إنه يقول: بكل تأكيد، فمن الممكن استعمال بينفو بنجاح.

ثم استدار الرجل المريض إليها يحدّثها بما يشاء فقالت: هو يريد منّي أن أزيدكم إيضاحاً، إن مشروع «ب» الذي سُمِّي فيما بعد بمشروع بينفو كان مشروعاً عمل فيه طوال عدّة أعوام ثم أفرغ يديه منه لأسباب خاصة به.

- هل فشل في تجسيد مشروعه؟

- لا، نحن لم نفشل، لقد كنت أعمل معه في ذلك المشروع، وعندما نحّيناه جانباً كان لأسباب معيّنة ليس الفشل من بينها؛ فقد كنا موفّقين أيما توفيق.

- نرجوك أن تزيدينا إيضاحاً.

- ولكنه يريد أن يعرف كيف علمتم بأمر ذلك المشروع!

- لقد علمنا به عن طريق أحد أصدقائه، علمنا به من السيدة ماتيلدا كليكهيتون التي تحدّث إليها عنه ذات يوم.

وبعد أن تأمّلت ليزا حركة شفتَي الرجل المريض قالت: يقول إنه كان يعتقد أن ماتيلدا قد انتقلت إلى العالَم الآخر منذ

عدّة أعوام.

- بل ما زالت على قيد الحياة، وهي التي أفضت إلينا بسرّ ذلك المشروع وأرادت منّا أن نعرف كل شيء عنه.

- سيحيطكم السيد شورهام علماً بالنقاط الرئيسية لما تريدون الإلمام به، وإن كان يجد لزاماً عليه أن يبصّركم بأن ما ستسمعونه منه لن يفيدكم في كثير أو قليل؛ فقد أعدم كل ما له علاقة بهذا المشروع من أوراق ومذكّرات. وإرضاء لفضولكم يمكنني أن أوافيكم بالخطوط الرئيسية لمضمونه، بطبيعة الحال أنتم تعرفون فوائد استعمال الغاز المسيّل للدموع الذي يستعمله رجال الشرطة لمقاومة المشاغبين والمتظاهرين، إلى آخِر ما هو من هذا القبيل.

- وهل هذا المشروع من نفس الفصيلة؟

- لا، وإن كان يؤدّي إلى نفس الغرض المقصود منه. لقد تبادر إلى أذهان العلماء أنه يمكن التأثير، بوسيلة أو بأخرى، في بعض النواحي من خصائص الإنسان العقلية وخصاله، ويريد السيد شورهام أن يحيطكم علماً بأنه توجد وسيلة يمكن بها تغيير نظرة الإنسان إلى الحياة، وأن من شأن مشروع بينفو أن يحوّل نزعات العنف والغضب والسخط إلى نزعات مضادة يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي «النزعات الخيّرة»، بمعنى أن الإنسان يجنح إلى الخير بدلاً من الشر وإلى الإحسان إلى الآخرين بدلاً من الإساءة إليهم.

- وما هو مدى تأثيره؟

- إن تأثيره ليس مؤقّتاً لأن له صفة الدوام.

- الدوام؟! هل يعني هذا أنكم تستطيعون بهذا العقار تغيير طبيعة الإنسان وتكوينه الخُلقي دون رجعة إلى ما كان عليه؟

- نعم، وهو اكتشاف له فوائده في حالات كثيرة مثل الحروب والثورات وأعمال الفوضى. إنه اكتشاف لسعادة الغير، سعادة دائمة للغير.

فقال السيد روبنسون: رائع. يا له من اكتشاف مذهل! حبذا لو يُوضع هذا الاكتشاف موضع التنفيذ، لكن، فيمَ كل هذا؟ ولماذا؟

فاستدار الرجل العليل برأسه تجاه السيد روبنسون فقالت الآنسة نيومان: يريد أن يقول إنك أكثر إدراكاً من الآخرين.

فقال جيمس: هذا ما أدركناه جميعاً، وما صدر عن السيد روبنسون هو ردّ الفعل الطبيعي للإحاطة بتأثير هذا الاكتشاف. إنه رائع فعلاً!

وكانت الآنسة نورمان تحرّك رأسها نفياً وهي تقول: إن مشروع بينفو ليس للبيع أو الإهداء.

فقال الكولونيل مونرو وهو غير مصدّق: هل نفهم من قولك أن الردّ سيكون بالنفي؟

- نعم، هذا ما يريد السيد شورهام أن يقوله لكم. لقد رأى فيه أنه ضدّ...

ثم توقّفت لتنظر إلى الرجل الذي كان يأتي بحركات برأسه ويده اليمنى وتصدر من بين شفتيه أصوات غير مفهومة، فتريثت قليلاً ثم قالت: إنه سيحاول أن يخبركم بنفسه. لقد كان خائفاً

مما فعله العلم في عهد ازدهاره، تلك الأشياء التي توصّل العلم إليها وكشف عنها النقاب، فتلك الأشياء كانت ضارة بالإنسان بقدر ما كان فيها من نفع؛ فها هو البنسلين بقدر ما أنقذ من حياة قضى على حياة أخرى، وها هي الذرّة بقدر ما فيها من نفع فيها من ضرر، بل إن ضررها أكثر من نفعها. لقد كان يخشى سوء استعمال ما يكشف العلم عنه النقاب لصالح الناس.

- لكن هذا المشروع سوف يستفيد الجميع من تنفيذه!

- لا تنسَ الآثار الجانبية التي تُكتشف بعد طول الاستعمال، إن هذا هو ما حدا به إلى نبذ هذا المشروع.

ثم راحت تقرأ على سمعهم ما دُوّن في المذكّرة التي بين يديها في حين كان العالِم الكبير يومئ برأسه موافقاً. وكان المدوّن إقراراً منه بأنه رأى الإطاحة بهذا المشروع والقضاء على كل ما يمتّ إليه بصلة خوفاً من سوء استعماله.

وبعد أن فرغت الفتاة من القراءة حاول روبرت شورهام جهده أن يتحدّث بلسانه المتلعثم إليهم فقال: لقد أعدمت نتاج عقلي وثمرة جهود الأعوام، ولا يعلم أحد في هذا العالَم شيئاً عن كيفية اهتدائي إلى ما توصلت إليه، وكان أن ساعدني في هذا العمل رجل واحد ولكنه في عداد الموتى الآن؛ فقد قضى السلّ على حياته بعد عام من نجاحنا. عليكم بالعودة إلى حيث أتيتم؛ فليس في وسعي أن أساعدكم.

- إن في وسعك أن تنقذ العالَم.

فأطلق المريض من فمه ضحكات مرتجفة ثم قال: أنقذ العالم؟ يا لها من عبارة! أليس هذا ما يعتقد شبابكم أنهم فاعلوه؟

إنهم يمارسون العنف والكراهية لإنقاذ العالَم، ولكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك، فلندعهم في طغيانهم. يجب أن ندع الأمور تجري على طبيعتها وأن لا نقاوم طبيعة البشر، لأننا لو حاولنا شيئاً من هذا القبيل فسنكون بذلك مقاومين لقدر الله.

وراح الرجل ينظر إلى المحيطين به، وكان يبدو وكأنه يناشدهم أن يفهموه، كما كان يبدو وكأنه فاقد الأمل في حُسن إدراكهم ثم قال: لقد كان من حقّي أن أقضي على ما صنعته يداي و...

فقاطعه السيد روبنسون قائلاً: أنا أشكّ في هذا لأن المعرفة هي المعرفة، ولا يجب بحال من الأحوال أن تعدم المولود الذي أخرجته للحياة.

- لكل واحد وجهة نظره، ولكن لا جدوى لك من التسليم بالأمر الواقع.

وبصوت صارخ هتف السيد روبنسون: لا!

فاستدارت إليه ليزا وقد استشاطت غضباً قائلة: ماذا تعني بقولك لا؟!

ولم تحاول أن تخفي مشاعرها، وقد دار بخلد السيد روبنسون أنها الفتاة المحبّة المخلصة لروبرت شورهام. لقد أحبته وعملت معه وها هي الآن ترافقه في مرضه، فقال لها السيد روبنسون: توجد أشياء يعرفها المرء مع الأيام ودورة الزمن، ولا أعتقد أن الحياة ستمتد بي طويلاً لأنني أشعر بهذا في قرارة نفسي؛ فقد عرفت من ماضي أيامي بضعة أمور. أنت خير مَن يدرك أنني على حق فيما أقول يا شورهام؛ فأنا أعرف أنك

رجل صادق أمين وأنه ما كان لك أن تقضي على ثمار عملك، بل لم يكُن في وسعك أن تفعل هذا. إن نتيجة تجاربك وأبحاثك مودعة في مكان ما في تحفّظ وحرص عليها، ولعلك قد أودعتها أحد المصارِف، ولا بدّ من أن الآنسة ليزا تعرف ذلك لأنك قد أوليتها ثقتكَ دون البشر جميعاً.

فردّ شورهام بصوت كان أكثر وضوحاً وجلاء قائلاً: مَن تكون؟ مَن أنت؟

- أنا رجل من رجال المال يعرف الكثير عنه وعن كل ما يتفرّع عنه. إن في وسعك أن تفعل الكثير باستعادة ما مضى. لقد سمعنا منك وجهة نظرك، ولا أزعم أنها كانت خطأ في كل النواحي؛ فقد تكون مصيباً فيما قلته عن المزايا والمساوئ، ولدينا في التاريخ أمثلة كثيرة كما ذكرت، غير أنه ليس من حقّك على الإطلاق أن تحجب عن العالَم ما توصّلت إليه من اكتشاف قد تُرجّح مزاياه على مساوئه.

فقال الكولونيل مونرو: فيمَ كل هذا الحديث وتلك المناقشة؟

فردّت الآنسة نيومان قائلة: السيد روبنسون يحاول، ولكن لا جدوى مما يقول؛ فردّ السيد شورهام رد قاطع ولا يمكن إرغامه على القيام بما لا يريد.

فأردف ألتامونت قائلاً: لا، نحن لن نرغمك أو نُثقل عليك يا روبرت، لك أن تفعل ما تراه صواباً فهذا حقك.

- إدوارد.

وحاول روبرت شورهام أن يواصل الكلام، ولكن لسانه

خذله مرّة أخرى فبدأ يحرّك يديه، فراحت الآنسة نيومان تقول: إدوارد؟ إنه يقول إدوارد، هل أنت إدوارد ألتامونت؟ إنه يستفسر منك يا سير ألتامونت عمّا إذا كنت راغباً حقاً في وضع مشروع بينفو تحت تصرّفك، إنه يقول إنك الرجل الوحيد الذي وضع رجال الحُكم في البلاد ثقتهم فيه، فإذا كانت هذه رغبتك...

فنهض جيمس واقفاً وأسرع قرب كرسيّ ألتامونت قائلاً: دعني أعاونك على النهوض يا سيدي، أنت مريض ولست على ما يرام. أرجو أن تبتعدي قليلاً يا آنسة نيومان، إن معي دواءه وأعرف ما يجب عمله.

ثم أسرع فأخرج من جيبه محقنة تحت الجلد قائلاً: إن لم أُسرع بحقنه قبل فوات الأوان فستسوء النتيجة.

ثم قبض على ذراع ألتامونت وكشف عنه قميصه تهيئة لحقنه، وبأسرع من لمح البصر كان هورشام يقفز إلى حيث يقف جيمس لمنعه من تنفيذ ما كان يهمّ القيام به، وحاول كليك أن يقاوم ولكن هورشام تغلّب عليه، وكان مونرو قد أسرع إلى معاونته.

قال مونرو: إذن فقد كنت أنت؟ جيمس كليك الخائن الذي يمثّل دور التابع الأمين!

وكانت الآنسة نيومان قد أسرعت إلى الباب ففتحته ودعت الممرّضة لتسرع بالحضور. وأقبلت الممرّضة وألقت نظرة سريعة على السيد شورهام الذي أومأ بيده إلى حيث يقف مونرو ممسكاً بكليك الذي يحاول الإفلات منه، فوضعت الممرّضة يدها في جيب معطفها غير أن شورهام صرخ قائلاً: إنه ألتامونت،

أزمة قلبية.

فزأر مونرو قائلاً: أزمة قلبية؟ لا، إنه شروع في القتل!

ثم توقّف فجأة عن إكمال كلامه قائلاً لهورشام قبل أن يقفز عبر الغرفة: لا تدعه يفلت منك.

ثم اتّجه إلى الممرّضة قائلاً: منذ متى التحقت بمهنة التمريض يا سيدة كورتمان؟ لقد فقدنا أثرك منذ أن استطعت الهرب في بلتيمور.

وكانت ميللي جين لم تُخرج يدها بعد من جيبها، وفي تلك اللحظة أخرجتها بالمسدس الصغير، فرآها مونرو تتّجه بنظراتها صوب شورهام فأسرع كي يحول بينها وبينه، كما أسرعت ليزا فوقفت أمام مقعده، فصرخ كليك قائلاً: جوانيتا، عليك بألتامونت. أسرعي، عليك به.

فرفعت ذراعها وأطلقت النار، فصرخ كليك قائلاً: لقد أصبت الهدف!

فتمتم ألتامونت بصوت ضعيف وهو ينظر إلى كليك قائلاً: جيمس؟ حتى أنت يا بروتُس؟!

ثم تداعى مستنداً إلى ظهر مقعده.

* * *

تلفّت الطبيب ماك كيلوك حوله وهو لا يدري ماذا يقول أو يفعل بعد كل ما قام به. لقد كان ذلك المساء من الأمسيات غير العادية في حياته. وأقبلت إليه ليزا بقدح من القهوة في يدها

قائلة: هذا قد يفيدك.

- كنت أعرف دائماً أنك فتاة نادرة يا ليزا.

ثم راح يرتشف من قدحه مستمتعاً ثم استطرد قائلاً: أريد أن أعرف فيما كان كل هذا، ولكنني قد لا أفوز منك بطائل لسرية الموضوع.

- هل السيد روبرت شورهام بخير؟

- نعم، إنه بخير، بل لقد كان لما حدث ردّ فعل أفاده كثيراً.

- كنتُ أظن أن الصدمة...

فقاطعها شورهام قائلاً: أنا بخير. إن الصدمات خير علاج للصدمات، أنا أشعر وكأنني عُدت إلى الحياة من جديد.

وكان بادي الدهشة، فقال ماك كيلوك يحدّث ليزا: ألم تتبيّني قوة صوته؟ دعيه يزاول عمله بقدر الإمكان لأن حياته في العمل ولا يزال ذهنه متوقداً.

كان شورهام ينظر إليها مستحثاً في حين كانت تنظر إليه وهي في شك من ذلك، فقال الكولونيل مونرو: أعتقد بأننا مدينون لك بشيء من الإيضاح لما حدث هذا المساء يا دكتور ماك، وإن كان من المفروض كتمان الأمر نزولاً على مقتضيات السياسة العليا. إن مقتل السير ألتامونت...

فقاطعه الطبيب قائلاً: الوفاة لم تكُن ناتجة عن الطلق الناري. لقد كانت بسبب الصدمة العصبية، وكان المفروض أن تؤدّي المحقنة إلى ذلك لولا...

- لولا أنني انتزعتها من يد كليك.

بهذا نطق هورشام موضّحاً ما حدث، فقال الطبيب: لقد كان دسيسة عليكم.

- أجل، وكان موضع ثِقة السير ألتامونت وحبّه لأنه كان ابناً لأحد أصدقائه القدامى.

- هذا ما يحدث أحياناً، وهل كانت السيدة مشتركة معه؟

- نعم، لقد التحقت بالعمل هنا كممرّضة بأوراق زائفة، وقد كان رجال الشرطة يبحثون عنها بتهمة القتل.

- القتل؟!

- نعم، قتل زوجها سام كورتمان السفير الأمريكي؛ فقد أطلقت عليه النار حينما كان يصعد درَج السفارة ثم اخترعت القصة التي أدلت بها ضمن أقوالها عن مهاجمة شبّان مقنّعين له.

- وما سبب العدوان عليه؟ أهو سياسي أم شخصي؟

- نعتقد أنها قتلت زوجها لأنه اكتشف بعض نواحي نشاطها المنحرف.

فقال هورشام: أعتقد أنه شكّ في خيانتها للبلاد إثر اكتشافه لخلية الجاسوسية والمؤامرات التي كانت تديرها. لقد كان في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل في هذا الوضع، لا سيما وأنه لم يكُن سريع البديهة.

ثم سمعوا كلهم صوت العالِم شورهام يقول: ليزا، سنبدأ

العمل من جديد.

فدُهِشوا وراحوا ينظرون إليه بحيرة فقالت ليزا: ولكن يا روبرت.

- لقد عُدت إلى الحياة من جديد.

فاستفسرت الطبيب عن هذا ونظرت إليه متسائلة فقال: إذا فعلت ذلك فسوف تسيء إلى صحتك.

فقال شورهام: أنتم هكذا دائماً معشر الأطباء، تجعلون مريضكم يعتقد أنه على حافة القبر!

فضحك الدكتور ماك كيلوك ونهض قائلاً: ليس إلى هذا الحد؛ فنحن نحرص على صحّة مرضانا. سأبعث إليك ببعض الأقراص لتعينك على ما تريد.

- لن أتناول منها شيئاً.

- بل ستتناولها بانتظام.

ثم توقّف الطبيب عند الباب قائلاً: أريد أن أعرف كيف تيسّر لكم استدعاء الشرطة بهذه السرعة!

- كانت لدى قائد الطائرة التعليمات اللازمة بالاستعداد لكل ما يحدث، وكنا نعلم بأن المرأة كانت تحوم حول المكان وإن لم تكُن لدينا أية فكرة عن أنها كانت في البيت فعلاً.

- لقد سمعت الكثير وشاهدت عجباً! وداعاً.

وانصرف الطبيب وخيّم على الغرفة الصمت، ثم سُمع صوت العالِم شورهام وهو يقول: هيا إلى العمل.

فقالت له ليزا شأنها في ذلك شأن سائر النساء: عليك أن تتوخّى جانب الحذر يا روبرت.

- لا؛ إن الحياة أقصر من ذلك، سأعمل تخليداً لذكراه.

- ماذا تعني؟

- ذكراه، أجل، ذكرى إدوارد.

واستغرق شورهام في تفكير عميق ثم قال: أريد أن أتصل بجوتليب، قد يكون في عداد الموتى ولكنه خير مَن يعمل معنا يا ليزا. استعيدي الأمانة من المصرِف.

فقال السيد روبنسون مجيباً: إن العالِم جوتليب لا يزال على قيد الحياة في مؤسّسة بيكر في أوستن بتكساس.

فتساءلت ليزا قائلة: ماذا تحاول أن تفعل؟

- مشروع بينفو بكل تأكيد، سأبعثه من جديد إحياءً لذكرى إدوارد ألتامونت الذي مات في سبيله. ألم يكُن هذا ما حدث؟ لا يجب أن يموت أحدنا عبثاً.

* * *

الخاتمة

بعث السير ستافورد ناي البرقية التالية للمرّة الثالثة: «أعددت العدّة لإقامة حفل الزفاف يوم الخميس القادم في ستونتون في تمام الساعة الثانية والنصف مساء، وسيكون الحفل تبعاً لعادات أهل البلدة أو تبعاً للعادات اليونانية إذا رغبتم في هذا. رجاء إرسال برقية بالتعليمات. أي اسم ستختارينه للتسجيل في عقد الزواج؟ ابنة أخي البالغة من العمر خمس سنوات تلحّ في أن تكون وصيفة شرف واسمها سيبيل. شهر العسل سنقضيه محلياً لأننا سافرنا كثيراً بما فيه الكفاية في المدّة الأخيرة. الإمضاء: مسافر إلى فرانكفورت».

وصله الرد: «إلى ستافورد ناي. أوافق على سيبيل كوصيفة شرف وأقترح ماتيلدا الكبرى رئيسة شرف، وكذلك أوافق على ما أُعدّ للزواج وقضاء شهر العسل. التوقيع: ماري آن».

* * *

(تمت)